التمهيد

إضاءات في العلاقة بين السياسة والأدب

التمهيد

أثر الجانب السياسي في الإبداع الأدبي

لاشك في أن الأدب العربي، قد شهد حركة تجديدية، عمّت الساحة العربية في منتصف (القرن الماضي)، لذا كان لزاما علينا الرجوع إلى الوراء لمعرفة المؤثرات التي ولّدت الإبداع الأدبي لدى أدباء ذلك العصر.

إنّ الأدب- وكما هو معلوم- وليد البيئة وانعكاس للحياة، وقد فطن النقاد إلى هذا الجانب، إذ أوضحوا أن للبيئة أثرا كبيرا في حياة الأدباء وإنتاجهم الأدبي.

ولعل أفضل من خاض هذا الغمار، هو الناقد الفرنسي (هيبولت تين)، إذ أولى تلك الناحية اهتماما كبيرا، وأرجع إليها سر النبوغ والعبقرية[1]، كما أشار إلى ذلك -أيضا- الدكتور (شوقي ضيف)، الذي أكد ضرورة دراسة البيئة وتفهمها، وسبر أغوارها، حيث قال: ((نحتاج في دراستنا لأدب أي أمة من الأمم، أن نعرف الأحداث الكبرى، التي أثرت في حياة منشئيه، لأنّ الأدب في حقيقته مرآة ناصعة، ينعكس عليها ما يصيب أهله من أحداث عامة وظروف خاصة.))[2] فشعر كل أمة من الأمم، ((صورة من واقعها وأحداثها، يستلهمه من تجاربها وصراعها مع ذلك الواقع وتلك الأحداث، تعبيرا عن مأساتها، وتمثيلا لكينونتها.))[3]، لأنّ الشاعر ابن بيئته، لذا كان لكل عصر لغته وشاعره، بل غرضه الذي شاع فيه، دون غيره من الأغراض، نتيجة ارتباطه بأحداث العصر، وقد مر الشعر العربي منذ نهاية القرن (التاسع عشر) إلى نهاية (الحرب العالمية الثانية) بتأريخ أدبي مرتبط بأحداث العصر السياسية والفكرية[4]، وهو أخطر مرحلة مرت بها الأمة العربية في سيرها الحضاري والتأريخي الطويل[5]، ((فالأحداث التي وقعت في هذه المرحلة جعلت الشاعر إزاء مجموعة من المتناقضات، وحالات التوتر الشديد، تكتنف عمله الفني في بناء القصيدة التقليدية وأسلوبها وقاموسها. توتر بين جدة المضامين[6]،

---

(1) ينظر: في الأدب والنقد: د.محمد مندور: 72. مطبعة نهضة مصر:.1949.

(2) الأدب العربي المعاصر: د.شوقي ضيف: 1، دار المعارف: القاهرة: 1997.

(3) الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر: د.عناد غزوان: 5. في ضمن كتاب(الشعر والفكر المعاصر)، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب الجماهير، مطبعة الشعب، بغداد: 1974.

(4) ينظر: المصدر نفسه: 14.

(5) ينظر: تاريخ الشعر العربي الحديث: أحمد قبّش: 7.دار الجيل-بيروت-1971.

(6) وقد اغفل كثير من النقاد تطورين مهمين، قد سبقا هذا التطور، وكان تأثيرهما واضحا في البنية الفنية للشعر السياسي آنذاك. فالأول: الشعر السياسي (للبارودي) وحنينه إلى الوطن، وتصوير أحداثه الكبرى، وقد امتاز بالبعد عن التكلف، فضلا عن موضوعات سياسية، خلع عليها طابع الجدة. والثاني: بعد إعلان الدستور سنة (1908)، الذي تحرر الإنسان العراقي بسببه من الخوف، فأبدع في مجال الشعر السياسي، مما أدى إلى توسيع دائرة الشعر القومي الوطني، والذي أدى بدوره إلى تطور الشعر تطورا واضحا في صوره وأدائه وأساليبه. ينظر: في الأدب الحديث: عمر الدسوقي: 1 : 225. وينظر: خيري الهنداوي

وتعقّد المشاكل، وعنف التجارب والمشاعر التي خلص بها من أثر الحرب العالمية، التي داهمت المجتمع العراقي وتقاليده وأعرافه.))[1]

وبعد أن أصبح العراق ضمن دائرة النفوذ البريطاني، تفتحت الأذهان على معايير جديدة لم تألفها، واختلطت المثل القديمة بالجديدة، فكان نتاجا من مزيج غريب متنافر، فضلا عن آراء دخيلة قد صاحبت الغزو ولم تكن معروفة من قبل[2].

إنّ الشعر في كل تلك المراحل قد تأثر بالتطور الفكري في مجموعه، ((وأنّ كل هذه المؤثرات - الداخلية منها والخارجية - كانت تخلق مجتمعا جديدا بين المثقفين والمتعلمين- على الأقل- في الأزهر والجامعات المماثلة له في شرق العالم العربي. ومن هذا المجتمع الذي فتح عينيه على مظاهر جديدة من الآداب، انبعث شعراء جدد توالوا على مسرح الشعر العربي في (المائة) سنة الأخيرة، وكان لكل منهم اتجاهه.))[3]، بذلك يكون الشعر قد تأثر بالحركات الفكرية، وأثّر في استمرارها وتطورها على السواء[4].

وقبل أن نتحدث عن مدى تأثير تلك التيارات في بنية الشعر العربي ونسيجه، علينا أن ندرك أنّ تلك الأحداث العظيمة التي هزت كيانه، قد حولت الشاعر العربي من (الرومانسية) إلى (الواقعية) نتيجة شعوره العميق بمسؤوليته تجاه أمته، وأنّ الشاعر العراقي قد واكب الحركة السياسية بكل مراحلها، وضحّى بكل شيء من أجل تغيير الواقع[5]، ((فكانت التأثيرات الرومانسية تتشظى على صخرة الواقع العراقي. فالهاجس الوطني الذي جسدته الحركات السياسية، والانقلابات العسكرية، والأحزاب الوطنية، وآثار الحرب الكونية الأولى، وسيطرة بريطانيا على العراق...كل تلك العوامل أسهمت إلى حد كبير في قمع الهاجس الرومانسي.))[6]، حيث إنّ هذا الوعي قد اقترن بظهور طبقة من الشعراء في المجتمع العربي تؤمن بالحرية، وتدعو إلى الديمقراطية، مما جعل الشاعر يقترب من الشعب، ويعيد في وظيفته في الحياة، فصار يفكر كيف ينظم؛ ليحسب من الشعراء العاملين النافعين[7].

ومن خلال ذلك، نستطيع القول أنّ: ((القرن التاسع عشر قرن القوميات الإنسانية الجديدة، فقد تجاوزت مفهومها الفطري، وتحولت إلى مبدأ مرتبط بأفكار ومشاعرتتجاوز

(حياته وشعره): يوسف عز الدين: 29. وينظر: الشعر السياسي العراقي: د.إبراهيم الوائلي: 319.وينظر: فلسفة الفن في الفكر المعاصر.د.زكريا إبراهيم: 108: القاهرة: 1966.

(1) تطور الشعر الحديث في العراق: د.علي عباس علوان: 56. منشورات وزارة الإعلام: بغداد: 1975.

(2) ينظر: خيري الهنداوي (حياته وشعره): د.يوسف عز الدين: 29: القاهرة: 1965.

(3) تأثير الحركات الفكرية على الشعر العربي المعاصر: عبد الكريم غلاب: 144. في ضمن كتاب(الشعر والفكر المعاصر): تأليف مجموعة من الأساتذة، منشورات وزارة الإعلام، جمهورية العراق، مطبعة الشعب، بغداد،1974.

(4) ينظر: المصدر نفسه: 121. وينظر: الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: يوسف عزالدين: 3: دار العودة: بيروت: 1972.

(5) تنظر: مجلة الأديب: العدد3، 13(آذار)1954.

(6) capture\2003. http\www.Al-Bayan caoe\Al-Bayan issue 164 whtm hay war

(7) مجلة الهلال: العدد2 س 46 (ديسمبر) 1937.

الفرد إلى المجتمع.))[1]، بذلك يكون الأدب العربي، قد مر بالدور نفسه الذي مر به الأدب الغربي في أزمان حروبه، حيث انتعش فيها الأدب الحماسي القومي، الذي يؤكد الاتحاد والقوة، ويقول مؤرخو الأدب: ((إنّ التاريخ يشهد في دور من أدواره تدفق هذا القدر من الأدب الوطني، المثير للهمم والحافز إلى العمل))[2]، بذلك تحول الشعر من المعارك الكلامية إلى الواقع[3]، وأصبح العامل والفلاح والجماهير الكادحة، أدوات الهام الفنان في مجال إبداعه الفني[4]، وذلك بسبب تأثيرات الجانب السياسي في نفسية الشاعر وتجربته الفنية، فباتت موضوعات الشعر السياسي تحتل أكثر من نصف دواوينهم[5].

وهذا ما يؤكد لنا صحة النظريات النفسية والاجتماعية القائلة : ((بأنّ ما يحدث لنا في محيط السياسة، يؤثّر في جميع نواحي حياتنا الأخرى، وأنّ ما يحدث لنا في محيط السياسة يتوقف على تكويننا النفسي والانفعالي.))[6]

ويذكر الدكتور: (علي عباس علوان)، أنه نتيجة تلك التحولات نتلمس درجة من الجدة في الشعر العربي، بسبب ما طرحته من قيم وأفكار ومسميات:(كالوطنية) و(الحرية) و(العدالة الاجتماعية) و(السياسة[7])، فهي بلا شك مفاهيم جديدة مغايرة للقديم، يمكن تسميتها بـ((جديد الكلاسيكية في العراق))، ((وهو طرق المواضيع السياسية والاجتماعية الحديثة والمختلفة كليا عن الموضوع السياسي في القصيدة العربية قديما والمبني-أساسا- على الصراعات القبلية، وأيام العرب، وصراعات الطوائف والأحزاب في العصر الأموي.))[8]

إذاً فحركة التجديد جاءت نتيجة عوامل سياسية، ((في ظروف الثورة والنهضة القومية الجديدة على الاستعمار والاحتلال والصهيونية؛ ولهذا برزت ملامح الثورة في مختلف جوانب الحياة، فكان لابد للشعر أن يكون متقدما في الثورة على التقاليد الشاملة لمظاهر المجتمع العراقي المتخلف))[9].

إنّ الحياة السياسية المتطورة، هي التي أخرجت الشعراء من المجال التقليدي الضيق إلى آفاق واسعة؛ ليصبحوا فيما بعد كبار شعراء دعاة الثورة[10]. وقد حاول الشعر العربي

---

(1)التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: ماجد السامرائي: 11.دار الحرية للطباعة: بغداد: 1983.
(2) محاضرات في نشوء الفكرة القومية: ساطع الحصري: 54، مطبعة الرسالة: القاهرة: 1951.
(3) ينظر: مقالة في الأساطير في شعر عبد الوهاب البياتي: طراد الكبيسي: 29: وزارة الثقافة والإرشاد: دمشق: 1974.
(4) ينظر: الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: د.يوسف عز الدين: 4.
(5) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 111.
(6) العقل الناضج: هـ.أ.أوفر ستريت: ترجمة عبد العزيز القومي ومحمد عثمان مؤسسة(فرنكلن) للطباعة والنشر: 1957.
(7) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 111.
(8) الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: صبيح جابر: 16، دار الشؤون الثقافية: بغداد: 2007.
(9) التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 304.
(10) ينظر: تأثير الحركات الفكرية على الشعر العربي: 153.
ومن أشهر شعراء الدعوة للثورة العراقية: ((محمد باقر الشبيبي، ومحمد رضا الشبيبي، ومن واصفي الثورة وموقدي نارها، محمد مهدي الجواهري ومهدي البصير)): ينظر: نفسه.

الحديث في تلك المرحلة، ((أن يكون إيقاعا لهذه الثورة وتفجيرا لرموزها الحضارية والإنسانية، وتجليا واضحا لحركة هذه الثورة وتناقضاتها، واندفاعها الصارخ العنيف للتحقق والاستمرار...وأصبحت الصفة الرئيسة التي تلتصق بهذا الشعر كونه شعرا ثوريا...وأنّه يحمل هما جماليا، وهمّا حياتيا، فتكشفت للشاعر موضوعات جديدة من رؤيته الشعرية))[1].

إنّ الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية، هي التي دفعت الشعراء نحو التخلص من نمط الشعر الكلاسيكي[2]؛ ((ليدخلوا بشعرهم مدخلا حسنا إلى معالجة الموضوعات والأغراض الجديدة، التي اقتضتها ضرورة العصر وأحداثه الجسام.))[3]

ومن الجدير ذكره أن هذه المحاولات الإبداعية، جاءت مرافقة لحركات الاستقلال والتحرر، وشملت كل الأقطار، ولذلك سميت المرحلة هذه بـ(تيار التحرر والتجديد)[4].

إنَّ الشعر في هذه المرحلة لم يكن خاليا من التقليد، ولكن تخلله شيء من الجديد بتناولهم مشاكل العصر بسبب الاستعمار[5]. المهم أنّ التجديد الثوري كان له أثره في الشعر العربي ((وامتزج هذا الأثر بالأفكار الإصلاحية، التي كانت تراود المثقفين الشعراء آنذاك، فكان في شعرهم شيء من الجدة- وقد تخلص من جمود اللغة والأسلوب - غير أنّ شعربعضهم كان نوعا من الخطب الوعظية.))[6]، لان التجديد الثوري في الفن ليس معناه الهدم، وإنما هو رفض لبعض التقاليد، وتطوير لبعضها الآخر، لاسيما تقاليد الفن التقدمية[7]، وهو ما يتفق مع وجهة شعراء النضال والصراع الذين آمنوا بالتجديد التدريجي[8]، غير أن الدكتور: (علي عباس علوان)، يقلل من شأن هذا التطور، معللا ذلك بأنّ شعراء تلك المرحلة لم يكونوا مؤمنين بالتجديد، ولم تتشرب قلوبهم به، كما أنّ تقلب الشعراء في مواقفهم، وعدم التأكد من صدق تجربتهم، قد أوقع الدكتور (علوان) في حيرة من أمره، مما جعله بأن يقر بعدم تمكنه من رصد مقدار حركة التطور في تلك المرحلة[9].

وإذا كان الدكتور (علوان)، قد قلل من أهمية ذلك التطور، فإنّ آخرين قد عدوا الشعر السياسي، سببا في ركود الشعر وجموده؛ بفقده عنصر الخيال، الذي هو أهم عناصر الإبداع في النص الأدبي، يقول الدكتور (ماجد السامرائي): ((إذا كان واقع الشعر التقليدي في العراق يشير إلى محاكاته للواقع بحقائقه، فإن الشعر السياسي القومي كان أكثر مباشرة إلى واقعيته...ولاشك أنّ نقل الحقائق وإعادتها دون فعل من ذات الشاعر، يضعف

---

(1) لغة الشعر العربي الحديث: د.السعيد الورقي: 226: القاهرة: 1979.
(2) ينظر: التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 398.
(3) تاريخ الشعر العراقي الحديث: 10.
(4) تاريخ الشعر العراقي الحديث: 10.
(5) ينظر: الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث: د.رؤوف الواعظ: 46، دار الحرية للطباعة: بغداد: 1974.
(6) تأثير الحركات الفكرية على الشعر العربي: 150.
(7) ينظر: الأممية في الشعر السوفييتي: عليم كيشوكوف: 47. في ضمن كتاب (الشعر والفكر المعاصر).
(8) ينظر: تاريخ الشعر العربي الحديث: 43.
(9) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 130، 118 ،124.

الخيال في القصيدة، وهو أحد عناصرها))[1] ، ويعلل الباحث: (عباس توفيق)، ذلك بأنّ الأدب الثوري، غالبا ما يبعد الأديب ويغفله عن الجانب الفني، ((وكان من نتيجة هذه العناية أن حظي المضمون الواقعي غالبا بالتقريظ والثناء، وأغفل الشكل والقيم الفنية الأخرى))[2]، أما الباحث: (إبراهيم الوائلي) فقد حطّ من قدر ما تطور، مفضلا الشعر السياسي الفني القديم على الحديث قائلا: ((إن الشعر السياسي في كل موضوعاته، لا يستطيع أن يسامي الشعر القديم في قوة الأداء والتعبير.))[3].

ومهما يكن من قول، فإنّ هذه الآراء تعكس وجهة نظر أصحابها، بيد أن النقاد على شبه إجماع ((بأنّ القصيدة العربية لم تنته إلى هذه البنية، إلا نتيجة لمجموعة من الخطوات والتطورات الموضوعية والفنية والنفسية، شاركت في خلقها مجموعة من الظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية.))[4]

والشعر السياسي مسهم - وإلى حد كبير- في تطور الجانب الإبداعي، إذ لا فجوة ولا تناقض بين الجانب السياسي والفني[5]، فالسياسة والفن وجهان لعملة واحدة، إذ لا انفصام بينهما بل، ((وأنّ خصوصية الغرض السياسي لم تقف عائقا أمام قدرات الشعراء المبدعين.))[6]، إذ لا يمكن أن يكتب النجاح لأي شعر سياسي، ما لم يكن أسلوبه أسلوبا فنيا راقيا، يقول الجواهري: ((أنا لا أفهم شعرا أو فكرا أو فنّا، يحاول أن يبلغ المستوى الثوري، وهو مهلهل الأسلوب.))[7]

إنّ الشعر الذي نقصده ((هو الذي يخلق الثورة فنيا، ولا يستمد قوته وخلوده من إعادة إنتاجها، وسرد مشاهدها بحماس ثوري وهتاف سياسي أمام المتلقي؛ ليثير عزيمته انسجاما مع أحداثها ونجاحاتها وتضحياتها، إذ إنّ هذا النوع من الأدب سرعان ما ينتهي بانتهاء فورة الغضب، خلافا للنوع الأول الذي تميز به أدباء العراق. فالأدب هو التعبير الفني عن أيدلوجية معينة.))[8]، إنّ التغيير في شكل القصيدة وفي المضمون الثوري، ينبغي أن لا يكون على أساس القيم الجمالية[9]، وذلك على اعتبار أنّ الفن ليس محاكاة

---

(1) التيار القومي في الشعر العربي الحديث: 44.
(2) نقد الشعر العربي الحديث في العراق: عباس توفيق: 166. دار الرسالة للطباعة: بغداد: 1978.
(3) الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر: د.إبراهيم الوائلي: 126.بغداد: 1961.
(4) تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 6.
(5) ((ولم يكن من السهل على مؤرخي الأدب، أن يغفلوا أثر السياسة في الأدب، وأثر الأدب في السياسة. وانقسم الكتاب والنقاد واختلفوا في العلاقة بينهما، ومعنى هذا أن النقاش مازال قائما حول وظيفة الأدب والأديب، ومازال الأخذ بأحد المذهبين الأدبيين المشهورين. مذهب الفن للفن، أو مذهب الفن الملتزم موضع خلاف ونزاع.)) الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث: 5. وينظر: الأدب المقارن: د.محمد غنيمي هلال: (389-384) : دار العودة: بيروت: 1962.
(6) التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 451.
(7) الجواهري فارس حلبة الأدب: محمد جواد الغبّان: 162.دار المدى للثقافة وللنشر بغداد: 2006
(8) ممارسات في النقد الأدبي: يمنى بالعيد: 78.وينظر الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 64.
(9) ينظر: في قضايا الشعر المعاصر (دراسات وشهادات): ادونيس: 159: جمع عبد الله أبو هيف: تونس: (بلا تاريخ). وينظر: الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 133.

للواقع، بل هو إبداع للأشكال التي يمكن أن يتطور الواقع منها واليها؛ لكي يعطي الحياة الجميلة ما ليس فيها[1].

إنّ الشعر ينطوي على مضامين اجتماعية وذاتية، تحدد قضية الشاعر، التي يدافع عنها من خلال حركته الإبداعية ومعطياته الفنية، ((ولذلك كان الالتزام بمواجهة الفن البرجوازي، والمدارس الرومانسية في الشعر والفن.))[2]، وقد أدرك (ماوتسي تونج) قيمة العلاقة بين السياسة والفن، فطالب بالوحدة بينهما قائلا: ((ليس هناك فن من أجل فن، أو فن فوق الطبقات، أو فن مواز للسياسة أو مستقل عنها، أما نحن فنطالب بالوحدة بين السياسة والفن، الوحدة بين المحتوى السياسي الثوري، وبين الشكل الفني، على أرقى درجة ممكنة من الكمال، فالأعمال الأدبية والفنية الخالية من الجودة الفنية، لا أثر لها مهما كانت تقدمية.))[3]

والشاعر العراقي وازن - وبشكل دقيق - بين التزامه الوطني والفني، ممسكا بزمام الأمر ضمن موقفيه الوطني والفني[4]. وقد امتاز بذلك الجيل (الخمسيني) و(الستيني)، حيث مزج بين الرؤية القومية، والموقف الإنساني، مؤطرا برؤيا متفتحة[5]، ويمكن القول: ((بأنّ استيعاب الشعراء للواقع المعاصر، وإدراك العمل بوصفه فنا، وخلقا للجمال... كل ذلك قد عمّق المواقف الجمالية للشعراء.))[6]

إنّ الشعر السياسي ينبغي له أن يبحث عن رؤى فنية جديدة، مخالفة للتعابير السائدة، ولا ينبغي أن يكون خاليا من الجمال الفني[7]، وذلك ((لأنّ رؤيا الشاعر تستجيب لتجارب الحياة استجابة فنية، وهذه الاستجابة التي تأتي على شكل رؤيا، إما أن تكون تفسيراً للحياة، أو اقتراحاً لنمط آخر من الحياة.))[8]، وهذا ما يتطلب بحثا دائما عن رؤى فنية جديدة، قد تكون مخالفة لما هو سائد ومألوف من أساليب تعبيرية، وقواعد فنية، تناقلتها عصور الشعر العربي لقرون عدة من الزمن، الأمر الذي ينسجم مع رؤية (مايكوفسكي) في هذا الجانب، التي تؤكد أنّه لا يوجد ضابط جمالي، لأنّ ماهية الضابط الجمالي، هي الخروج عليه. فالكاتب كما يرى بعض الدارسين لا تتجسد أصالته في أسلوبه حسب، وإنما في طريقة تفكيره وقناعاته[9]. وبناء على ذلك فانّ، ((الفن ليس مجرد إعادة صنع الحياة حسب، وإنما تكوين لها أيضا، إذا هذه هي الحقيقة التي تساوي الفعل الثوري، التي ظل شعراء العراق الرواد في العصر الحديث يبحثون عنها، وهم في ذلك يشبهون

---

(1) ينظر: الرؤيا في شعر البياتي: محي الدين صبحي: 9: دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد: 1988.
(2) الالتزام والتصوف في شعر عبد الوهاب البياتي: عزيز السيد جاسم : 4: دار الشؤون الثقافية العامة بغداد: 1990.
(3) في ندوة الأدب والفن : ماوتسي تونج : 46. دار النشر باللغات الأجنبية : بكين : 1968.
(4) ينظر: الجواهري شاعر من القرن العشرين: د.جليل عطية: منشورات الجمل: ألمانيا: 1998.
(5) ينظر: التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 413.
(6) الأممية في الشعر السوفيتي: 47.
(7) ينظر : الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 66.
(8) الرؤيا في شعر البياتي: 31.
(9) ينظر: الرواية العربية: خورشيد فاروق: 75: دار الشرق: القاهرة: 1975.

(بوشكين) و(تولستوي) و(غوركي)، حيث كتب هؤلاء المبدعون على وفق الطريقة الخاصة التي فكروا بها ونظروا، وفهموا الناس والحياة بموجبها، لقد عاشوا ما كتبوا وكتبوا ما عاشوه.))[1] فالسعادة والسلام لا يتفقان مع الإبداع الفني، فالإبداع ابن الحساسية المرهفة[2] وأنّ جلّ الأدباء يولدون من رحم الثورات والأزمات، وأنّ أضخم الإنتاج الأدبي يتكون بعد الانقلابات السياسية والاجتماعية[3]، ولا إبداع في ظل الترف والدعة، ((إنّ المصائب والبؤس من الحركات المضطربة التي يولد بعدها الأدباء ...إن العبقريات موجودة في كل زمن، ولكن العباقرة يظلون تائهين عائمين حتى تقع الأحداث التي يصطلي الناس بحرارتها، فيصفها العباقرة، ويجعلون من حرارتها دفئا للقلوب والنفوس.))[4]، مما يعني أنّ الجانب السياسي مؤثر، ومحرك أساس في عملية التطور الإبداعي، غير أنّ التأثير لم يكن دفعة واحدة، وإنما كان على وفق مراحل أبرزها :-

- مرحلة السلفية اللغوية والأسلوبية.
- مرحلة الانعكاس الفكري والتأثر بالشعر الغربي.
- مرحلة التطور الهيكلي للقصيدة العربية وتطور الرؤيا الشعرية في الشكل والمضمون[5]

((إنّ الأحداث السياسية المتسارعة أدت إلى تغير مادي في حياة فئات من سكان العالم العربي، وأدت إلى ضرورة قيام ثورة أعمق من قبل على الشعر العربي شكلا ومضمونا))[6] فتغيير المضمون يستوجب تغيير الشكل، ((وإنّها لمفارقة غريبة أن نرى اليوم في المجتمع العربي شعراء يؤمنون بالاشتراكية والشيوعية، ويعبرون عن إيمانهم بالطرق ذاتها التي عبر بها الشعراء القدامى))[7] فالمناخ السياسي هو الذي أدى إلى فرز أشكال أدبية، وبرر ظهور الشعر الحر وتعايشه مع الشطرين؛لتصب جميعها في خدمة القضايا الوطنية والاجتماعية[8]، باحثا في الوقت نفسه عن لغة تعبير جديدة في نضاله من أجل معايير خلقية جديدة..خالقا نكهة العصر، وموسعا المجال الذهني لتداعي الصور، ومكثفا الشعر عن طريق تقريب المفاهيم البعيدة[9]((فولّد شعرا جديدا هو الشعر الحر، وحمل بين طياته معالم رؤية جديدة.))[10]وما كُتب في الشعر(الجزائري)خير دليل على ذلك

---

(1) الأفكار والأسلوب: أ.ف.تنشترين: ترجمة: حياة شراره: 37: طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية: بغداد: (بلا تاريخ).
(2) ينظر: علم النفس والأدب: سامي الدروبي: 233: مطابع دار المعارف بمصر: القاهرة: 1971.
يقول بتهوفن: ((إن الحساسية تلتهمني التهاما فما يمس الآخرين مسا يجرحني أنا جرحا.)) المصدر نفسه والصفحة.
(3) ينظر: الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث: 6.
(4) تيارات أدبية بين الشرق والغرب: إبراهيم سلامة : 300: مطبعة أحمد مخيمر: القاهرة : 1952.
(5) ينظر: تأثير الحركات الفكرية على الشعر العربي: 144.
(6) الشعر والمجتمع: علي الحلي: 36. مختارات من الأبحاث المقدمة لمهرجان المربد الثالث: 1974. منشورات دار الإعلام - الجمهورية العراقية - سلسلة كتب الجماهير دار الحرية للطباعة: بغداد: 1974. وينظر: الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: 3.
(7) المصدر نفسه: 33.
(8) ينظر: مجلة الطريق: العدد(4): 1997.
(9) ينظر: الأممية في الشعر السوفيتي: 57.
(10) الشعر والمجتمع: 33.

((حيث تضمن أشكالا متنوعة في شكل القصيدة، معبرا أصدق تعبير عن نقطة تحول في مسار الحركة الشعرية الحديثة، بذلك يعد الشعر السياسي(الجزائري)أول تحوّل مهم في تاريخ الحركة الشعرية، بعد التحول الذي شهده العصر الأموي والعباسي.))[1] لأنّ المضمون الثوري غيّر من طابع الشعر، وجعله يتجه إلى الجماهير العريضة، وهذه العملية أفضت إلى محاولات تجديد اللغة الشعرية جذريا[2]، وذلك من خلال أشكال جديدة وتقنيات أسلوبية جديدة:كالتنوع في القوافي، واستخدام مجازات، وكلمات جديدة. ((فوعي الأديب السياسي للغة عصره .ومعرفته بتجربته، ورجاحة عقله، وخبرته بطبائع الناس، ودرجات تفكيرهم ما عسى أن يكون للغته وكلماته من صدى وأثر في الأذهان، فيحسن الاختيار ويضع الأشياء في مواضعها.))[3] بذلك يكون الأدب، ((قد توجه وجهة جديدة، من أهم معالمها ترك الألفاظ القديمة، واستعمال الكلمات المختارة.))[4]، وتلك المظاهر تتجلى في قصائد الشيخ:(إبراهيم اليازجي) لاسيما في قصيدته:((تنبهوا واستفيقوا أيها العرب.....)) وبعض قصائد (إلياس صالح)[5]، ولكن (الزهاوي) كان أوسع أفقا منهما، وأعمق نظرة، وقصيدته المشهورة[6] تعد بداية التجديد في الشعر السياسي، وقيل إنّ التجديد السياسي كان على يد (شوقي)[7] و(الرصافي). والحقيقة أنّ التجديد الفعلي للشعر السياسي والفني، قد تشكل نسيجه الحقيقي على يد (الجواهري) فهو قد تأثر (بشوقي) و(الرصافي)، وأخذ عنهما، وتفوّق عليهما، إذ استطاع أن يجمع بين ظاهرة التمرد السياسي والفن الشعري، أو بمعنى آخر بين السياسة والفن[8].

ومن خلال ذلك نستطيع أن نستنتج بأنّ الشعر السياسي قد مرّ بمراحل فنية مختلفة، فتحول من الرومانسية إلى الواقعية، ومن المضمون إلى الشكل بشقيه: (التفعيلة) و(المنثور)، وهكذا يبقى الشعر في تطور مستمر، طالما أنّ هناك فكرا متجددا، ((فقد أصبح الشعر يتطلع إلى قيمة موسيقية جديدة، حتى يحقق الثورة كاملة. وما نحن بمتشبثين بالتفعيلة، ولكن لا يجب أن تلغى مادام القراء لم يهتدوا بعد إلى أساس موسيقى جديد، يقبله الذوق العام، ويعتمد على أسس فنية وعملية ذوقية، تتفق مع المضامين الجديدة، ومع

---

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: عثمان سعدي: 17: دار الحرية للطباعة: بغداد: 1981.
(2) ينظر: الأممية في الشعر السوفيتي: 57.
(3) الأصول الفنية للأدب: عبد الحميد حسين: 62.مطبعة العلوم: القاهرة: 1964.
(4) الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: 3.
(5) ينظر: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر: جرجي زيدان: 287: 2: القاهرة: مطبعة دار الهلال: 1922.
(6) ومن أبياتها قوله:

لهفي على بغداد من بلدة قد عشش العزّ بها ثم طار

ينظر: الكلم المنظوم: الزهاوي: 268: دار مصر للطباعة القاهرة: 1955.
(7) قيل إنّ الشاعر(أحمد شوقي) هو الذي استحدث الشعر السياسي؛ ليوجه سهامه من خلاله إلى صدر المستعمر. ينظر: الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: 23.
(8) ينظر: الجواهري والطغاة: د. سعيد عدنان: 3،7،8،10. وينظر: الجواهري شاعر التجديد والثورة: د.فاخر مياً: 75 إلى48. وينظر: الشاعر الحاكم والمدينة: جبرا إبراهيم جبرا: 43 إلى 87.

الصور الشعرية، التي هي شيء آخر غير المضمون وغير الشكل. مازلنا إذا في حاجة إلى أن تبلغ الثورة الشعرية مداها، ولن تبلغه إلا إذا بلغت الثورة الفكرية المدى الذي يمكن أن تصل إليه))[1].

أما مضمون الشعر بعد تلك الهزات العالمية لم يعد مجرد صوغ كلمات رنانة، وإنما اتجه إلى العناية بالتجربة الشعبية في إطار إنساني، وأخذ يكتب ما عاناه من أزمات، ويسّجل ما يحسّه من آلام[2]، بذلك كان للأحداث السياسية أثرها البيّن في عملية التطور الإبداعي.

الشعر السياسي :مفهومه ومراحله

أولا :مفهوم الشعر السياسي

أ- تعريف السياسة:

((المصطلح مشتق من الكلمة الإغريقية (Polis) وتعني: مجتمعا سياسيا لمواطنين مرتبطين بدولة مدنية.))[3] وقيل:((إنّ السياسة مجموعة قرارات يتخذها عنصر سياسي، أو أو مجموعة سياسية بشأن اختيار الأهداف.))[4]، هو ما يتفق في مضمونه مع التعريف الحديث للسياسة، التي تعني: ((حكم الأمم أو فن هذا الحكم، وهي كما تتصل بنظم الدولة في الداخل، تتصل أيضا بنظمها والتزاماتها مع الدول الأخرى.))[5]

إنّ كل تلك التعاريف السابقة، لا تختلف عن مفهوم السياسة عند العرب قديما، كونها تعني:((تدبير شؤون الناس، وتولي أمورهم، والرياسة عليهم، ونفاذ الأمر فيهم.))[6]وقيل هي:((صلاح الموجودات وبقاؤها على أفضل الحالات وأتم الغايات.))[7]

وقد عدّ (إخوان الصفا) السياسة من العلوم الإلهية، وهي عندهم أنواع منها: السياسة النبوية، والسياسية الملوكية، والسياسة العامة، ثم السياسة الخاصة[8]، وإذا نظرنا إلى تلك الأقسام وجدنا أنّ الثلاثة الأولى منها، هي التي تتصل بموضوعنا من حيث اتصالها بتنظيم الجماعات- بعدما تتكون - وتدبير شؤونها الدينية والدنيوية.[9]

---

(1) تأثير الحركات الفكرية على الشعر العربي: 180.
(2) ينظر: الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: 3.
(3) المعجم السياسي الحديث: د.احمد عطية السعيد: 343.
(4) المصدر نفسه: 317.
(5) تاريخ الشعر السياسي : احمد الشايب: 3 ،4: القاهرة: مطبعة السعادة: 1953.
(6) لسان العرب، والقاموس المحيط: مادة: (سوس).
(7) رسائل إخوان الصفا: 1 : 314.دار صادر، بيروت: 1957.
(8) ينظر: المصدر نفسه: 1: 207.
(9) ينظر: تاريخ الشعر السياسي: 4.ط: 4 : مكتبة النهضة المصرية: 1976.

ب- الشعر السياسي:بناء على ما سبق من تعاريف، يمكن القول بأنّ الشعر السياسي:

((هو هذا الفن من الكلام الذي يتصل بنظام الدولة الداخلي أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول))[1]

ثانيا: مراحل الشعر السياسي:

بعد أن وقفنا على حقيقة الشعر السياسي من خلال تعريفاته السابقة - ولأجل إزالة الغموض عن بعض جوانبه- فقد أضيفت إليه قيود منها، أنه ليس بالضرورة أن يعبر عن رأي المجتمع، ولا تشترط فيه الأدلة، وليس من الضروري أن يكون تعبيره عن السياسة[2]. وأنّ فلسفة صراع الشعراء مع الحاكم عبر القرون تتوافق مع التعاريف السابقة للشعر السياسي في مدلوله، ((لأنّ السياسة: تعني بالضرورة وجود الصراع واتفاق الرأي، وبدون الصراع لا تكون هناك أية حاجة إلى السياسة.))[3]، وقد ذهب بعض النقاد إلى عد شعر المدح الذي ينشده شعراء القبائل في زعمائهم من الشعر السياسي[4]، وبذلك يمكن القول بأنّ الشعر السياسي، هو ظاهرة سياسية بارزة- عبر التاريخ - تكشف عن ((صلة الأدباء بالقبيلة، أو بالخلفاء والوزراء والملوك والسلاطين والأمراء، وتأييد سياستهم وسلطانهم أو الخروج عليهم.))[5]

يقوم الشعر السياسي إذاً على مفهوم تحديد موقف المواطن من السلطة، والتعامل معها[6]. ثم تطور الشعر السياسي إلى مفهوم أعمق، لتصبح وظيفة الأدب الاجتماعي تعطي معنىً سياسيا عند كثير من الناس[7]، ومن ثم تجاوز مفهوم القطرية إلى القومية والأممية[8]، فتناولوا مشكلات الشرق، وما خلفه الاستعمار من الجهل والتأخر، وإذا بقصائد تتحدث عن النهضة والحقوق[9]. فعلى الرغم من إقرارنا بتطور مفهوم الشعر السياسي، إنّ النقاد قد تضاربت أقوالهم حول تحديد تأريخه، غير أنّ الجمع الأكبر متفق على أنه موجود منذ القدم، يقول أحمد الشايب: ((هذا الضرب من الشعر كان في كل

---

(1) تاريخ الشعر السياسي: 4.
(2) ينظر: الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر: 12.
(3) المعجم السياسي الحديث: 343.
(4) ينظر: في رحلة الفكر والتجول: هادي العلوي: 13.
يقول هادي العلوي: ((بذلك تعد الهاشميات من الشعر السياسي))المصدر نفسه والصفحة.
(5) الأديب والالتزام: محمود الجومرد: 101.مطبعة المعارف : بغداد: 1980.
(6) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 111.
(7) ينظر: الأديب والالتزام: 101.
(8) فعلى سبيل المثال لا الحصر تنظر: قصائد الجواهري: (شهيد العرب) الأعمال : 2 : 182. (فلسطين والأندلس) الأعمال: 4 : 529. (أطفالي وأطفال العالم) الأعمال: 5 : 827. (فرصوفيا): الأعمال: 5 : 846. (أيها الوحش، أيها الاستعمار): الأعمال: 4 : 601.(سواستبول): الأعمال: 3 : 400.(ستالينغراد) : الأعمال : 3 : 408. (يوم الجيش الأحمر): الأعمال: 3 : 412.
(9) ينظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: محمد حسين: 1 : 60.مكتبة الآداب: الإسكندرية: 1954.

عصوره وآفاقه، من أبرز المقاييس في رسم الجانب السياسي لحياة العرب ونظمهم حتى البدائية منها أو الشبيهة بالبدائية، وكان وسيلة مهمّة من وسائل التعبير، التي تناولت السياسة منذ العصر الجاهلي، فقد كانت القبيلة العربية آنذاك أشبه ما تكون بالصورة المصغرة للدولة))[1]، بوصفها ذات مكان ووحدة ونظام ورئيس يشرف عليها وكانت صلتها بالقبائل الأخرى تشبه صلات الدول الآن[2]. وإذا عرضنا الشعر الجاهلي في جملته. وجدناه قبائليا يخضع في تجاربه لسيادة القبيلة ومكانتها بين القبائل، فهو يستمد مقومات القبيلة في إطارها الداخلي إذ يعتز بها ويمدح رجالها وأعمالها، وقد يثور عليها[3]، كما فعل الشعراء (الصعاليك) بقيادة (عروة بن الورد) مع ثلة من الذين معه، ممن أذلتهم الأوضاع السياسية والاجتماعية[4]، ((وقد كان هؤلاء من قبائل شتى جمعتهم الفكرة، فذابوا فيها والتزموها، وقاتلوا وسلكوا الأخطار في سبيلها، فضلا عن ذلك أنّ شعرهم يمتاز بالصدق والصراحة والقوة والنجدة والمروءة))[5]، فهذا (عروة بن الورد) الذي يلقبونه (بعروة الصعاليك) يقول:

دعيني أطوف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيها لذي الحق محمل
ألـيس عظيما أن تلم ملمة ... وليس علينا في الحقوق معول
فان نحن لم نملك دفاعا بحادث ... تلم به الأيام فالموت أجمل[6]

وبعد تلك المرحلة بدأ الشعر الإسلامي السياسي[7]، مرحلة جديدة، ممثلة بـ (حسان بن ثابت) و(كعب بن مالك) و(عبدا لله بن رواحه) ممن التزموا بالإسلام، ودافعوا عنه، وقاتلوا في سبيله.

ومن الجدير بالذكر((أنّ الشعر السياسي، قد تطور واتسع نطاقه من حيث الموضوعات، نتيجة لتطور الحكم والنظم عند العرب، بعد ظهور الدعوة الإسلامية.))[8]، وينفي الباحث (هادي العلوي) فكرة التطور عن مرحلة (العهد النبوي) سوى أنّ الشاعر لا يرجو مكافأة على ما يكتب، حيث يقول: ((على أن التجارب الجديدة التي شملها اصطلاح الشعر السياسي، لم تخرج عن أغراض الشعر القديمة، من مديح وهجاء ورثاء وحماسة،

---

(1) تاريخ الشعر السياسي: 4.
(2) ينظر: في الأدب المقارن : عبد الرزاق حميدة: 107: مطبعة العلوم: 1948.
(3) ينظر: الشعر السياسي العراقي في (القرن التاسع عشر): 122.
(4) ينظر: التمرد الاجتماعي والفني في شعر الجواهري: 17.
(5) الشعر السياسي العراقي (في القرن التاسع عشر): 124.
(6) شعراء النصرانية في الجاهلية: لويس شيخو: 6: 885: مكتبة الآداب: القاهرة: (بلا تاريخ). وينظر: حماسة أبي تمام: 2: 45. شرح العلامة التبريزي : مراجعة محمد عبد المنعم خفاجي : مطبعة محمد علي صبيح: 1995.
(7) يقول هادي العلوي: ((إن الشعر السياسي بدا في عهد النبوة واستمر في العهدين الراشدي والأموي.)): في رحلة الفكر والتحول: 13.
(8) الشعر السياسي العراقي (في القرن التاسع عشر): 124.

كما لم يطرأ تبدل مهم في مضامينها الفكرية أو صورها الشعرية، وربما كان (الهدف) هو الفاصل الوحيد بينها وبين الأغراض السالفة: هنا لم تكن المصلحة الشخصية للشاعر تقف وراء نتاجه الشعري، بل ارتباطه بالجماعة التي ينتمي إليها.))[1]، ثم يستطرد القول: ((بأنّ الشاعر السياسي يكتب تحت تأثير الالتزام، دون أن ينتظر المكافأة المعتادة من أوليائه باستثناء ذلك، لا يمتاز الشعر السياسي من التقليدي بأية ميزة))[2] وجاء (العصر الأموي) فنشطت الأحزاب التي اتخذت من الدين الإسلامي شعارا لها مثل: الحزب الأموي الحاكم، ثم العلويين، ثم الخوارج، ثم الزبيريين[3]. فقد كان لكل تلك الأحزاب شعراؤها، يعتقدون بعقائدها، ويذودون عنها فتشتد أشعارهم حماسة باشتداد الصراعات، التي ساعدت على توجيه الشعر السياسي وتطوره. فمثلا حينما ظهر الخوارج... ((برز منهم شعراء ملتزمون، خرجوا على تقاليد الجاهلية والعصبية القبلية، ولم يسلكوا طريق الشعراء: (الفرزدق) و(جرير) و(الأخطل)، الذين عاصروهم، ومن أشهر شعرائهم (عمران بن حطان) وهو من فحول شعراء الخوارج))[4].

ومما يجدر ذكره، فضلا عن تلك الفرق والأحزاب، ظهرت طائفة جديدة من الصعاليك، ((يصح أن نسميها طائفة الصعاليك السياسيين، وقد ساعدت الأوضاع السياسية المضطربة على نشأتهم وظهورهم...وكلهم كانوا من الفقراء، وقد تمثلوا الأوضاع السياسية تمثلا دقيقا، وكانوا أشد حقدا، وأعنف تمردا، وأكثر خطرا.))[5]

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين، توجه الشعر السياسي إلى تأييد البيت الهاشمي، ثم انقسم على شطرين:شطر مع الجانب العباسي، وآخر مع العلويين.[6] ويذكر انّه ((عند النهايات الأخيرة للقرن الأول الهجري انتشرت في العراق، وبعض أقاليم الدولة قصائد سياسية، عرفت فيما بعد باسم (الهاشميات)، على يد (الكميت بن زيد الأسدي)، فكانت جزءا من تيار أدبي ظل جاريا حتى نهاية عصور الخلافة.))[7] وهذه مرحلة أخرى جديدة، مرّ بها الشعر السياسي العربي، وقد شهد تطورا فنيا ملحوظا ((فهو بدل من أن يمدح الشخص انتقل إلى المدح السياسي، وبدلا من أن يهجو الأمويين هاجم سياستهم، ثم ذهب إلى ابعد مدى، فوصف الوضع المعاش السيئ للجماهير، واضعا يده على التناقض الحاد بين معيشتها ومعيشة الطبقة الحاكمة))[8]. وهكذا استمر الشعر السياسي في طريقه المرسوم

---

(1) في رحلة الفكر والتحول: 13.
(2) المصدر نفسه والصفحة.
(3) ينظر: الشعر السياسي (في القرن التاسع عشر): 124. وينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 111.
(4) الكامل: المبرد: 3: 262. مراجعة: محمد أبو الفضل والسيد شحاتة: دار النهضة: مصر: 1967.
(5) الشعراء الصعاليك في العصر الأموي: د.حسين عطوان: 72. دار المعارف بمصر: 1970.
(6) ينظر: الشعر السياسي في (القرن التاسع عشر): 125.
(7) في رحلة الفكر والتحول: 13.
(8) في رحلة الفكر والتحول: 14.

يؤيد ويناوئ، ولكنه في أواخر (العصر العباسي) حتى نهاية (القرن التاسع عشر) قد استحال معظمه إلى مدح وتأييد للحكم أيا كان[1].

((إنّ الشعراء قد مسحوا ما بقي للشعر من كرامة، فالمصلحة متبادلة، بين السلطان والشاعر.المدح يقابله العطاء الجزيل))[2]وهي أسوا مرحلة في تاريخ الأدب العربي.

(1) ينظر: الشعر السياسي في القرن التاسع عشر: 25.

(2) تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 30. وممن بحث هذه الأغراض: إبراهيم الوائلي (الشعر السياسي في القرن التاسع عشر) ويوسف عز الدين: (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) وداود سلوم (تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي في القرنين التاسع عشر والعشرين).

شعر الجواهري بين السياسة والفن

يعد الجواهري من أغزر الشعراء الذين كتبوا في الشعر السياسي على مدى قرن تقريبا، إذ لا تخلو أية قصيدة من قصائده الشعرية من طرق أبواب السياسة تصريحا أو تلميحا، وإذا كان شعراء (الأندلس) قد وظّفوا الطبيعة في الغزل والرثاء، فإنّ الجواهري قد وظف الشعر السياسي في جميع الأغراض الشعرية - وبشكل فني- كما في قصائده: (في رثاء شيخ الشريعة)[1]، و(مبادلة العواطف)[2]، و(يا فراتي)[3]، و(على حدود فارس)[4]، و(على كرند)[5]، و(في الربيع)[6]، و(سلمى على المسرح)[7].

لقد استطاع ((أن يجمع مابين عنف الأحداث، وجمالية الفن، وأن تتوحد في أعماقه وفي شعره ملامح تلك الشخصية التي كان يراها موزعة مابين (الرصافي) الشاعر السياسي المتمرد المبتعد عن روعة الفن وجمال الصورة، وبين (شوقي) الفنان المصور))[8]. فمن هذا المزيج المتجانس، فضلا عن المزاج الشخصي، ودرجات العنف، وحب الناس والتحسين، ومدى القابلية على التطور والتأثر والتأثير، استطاع الجواهري أن يبتكر في الأدب العربي موضوعا جديدا - ولأول مرة في تاريخ الشعر السياسي- يصح تسميته بـ (الأسس الفنية للشعر السياسي)[9].

إنّ الجواهري قد جمع مابين الفن الراقي، والواقعية والسياسية، مما جعل الشعراء الشباب يقلدون طريقته في شعره السياسي، كما يقول (السياب): ((وكأنهم يحسّون أنّ هذا اللون من الشعر يكاد يكون مكتملا، إن لم يكتمل فعلا على يد الجواهري))[10] فهو من أولئك الشعراء النادرين الكبار ((الذين حققوا هذا الارتقاء، وصنعوا ما هو خاص بهم، وما هو عام في الشعب كله، وبلغوا في لحظة توتر، أن يمزجوا ذاتهم الإبداعية بذات الشعب الملهم لهذا الإبداع))[11] فشعره إذن موزع بين الروعة الفنية، وما يمليه التاريخ،

---

(1) الأعمال الكاملة: الجواهري: 1 : 58.دار الحرية للطباعة والنشر: بغداد: 2001.
(2) الأعمال الكاملة: 1 : 73.
(3) الأعمال الكاملة: 1 : 111.
(4) الأعمال الكاملة: 1 : 126.
(5) الأعمال الكاملة: 1 : 128.
(6) الأعمال الكاملة: 1 : 133.
(7) الأعمال الكاملة: 2 : 239.
(8) تطور الشعر العربي الحديث في العراق : 258.
(9) في حوار الدكتور علي جواد الطاهر مع شاعر العرب الأكبرمحمد مهدي الجواهري:
((هل استطاع الشعراء العرب أن يجعلوا من السياسة شعرا؟. الرصافي وحده مع الاحتياط فيما يتعلق بالناحية الفنية..إن مزاج الرصافي لم يكن مغامرا بلا حدود.وشوقي لا يشق له غبار، لو لم يقيد شعره بالعثمانيين، وكان مستحيلا أن يتمرد.)) ينظر: مجلة الكلمة العدد الثاني: 46 لسنة 1972.
(10) التجديد في الأدب العربي: بدر شاكر السياب: 3. تنظر: جريدة الحرية: العدد908(16 حزيران 1957). وينظر: الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتى عام 1958: 319. وينظر: الصراع بين القديم والجديد: د.محمد حسين الاعرجي: 34.
(11)الجواهري شاعر التجديد والثورة: فاخر ميا: 23.دار المرساة للطباعة والنشر: سوريا-اللاذقية-2006.

وتوجهه الحياة، مبتغيا المثل العليا بالتعبير والتفكير[1] فارتقاء الجواهري لهرم الشعر السياسي، إنما جاء بعد جهد جهيد.

إنّ الجواهري في السنوات التالية بعد (ثورة العشرين)، وحتى (الثلاثينات)، كان شعره السياسي، يفتقر إلى التفكير العلمي المنظم[2]. وفي مرحلته الثانية((التي تمثلها (الأربعينات) التي تشير إلى تخطّيه حدوده السابقة المعروفة، وحدود التقليد الشعري (الكلاسيكي)؛ ليصبح رائدا للمدرسة الكلاسيكية الجديدة، وكانت مجموعة المتغيرات التي حدثت في الحياة السياسية والفكرية في العراق هي التي أوجدت هذه الانعطافة في تجربته الشعرية، ولعل أبرزها انقلاب (بكر صدقي)(1936)، وقد كان شعره في هذه المرحلة سجلا ممتازا، وتصويرا دقيقا لتطلعات الحركة الوطنية، وأصبحنا نقرا له شعرا غير ما عرفنا للشاعر))[3].

إنّ قصيدة (أبو العلاء المعري)، تعد طفرة حقيقية في حياة الجواهري في مجالي الفكر والفن، فهو يتناول موضوعا سياسيا، يتعلق بصراع الطبقات، ولكن بأسلوب فنّي أخّاذ، من خلال لغته الشعرية، إذ استطاع توظيف العلاقات ما بين المفردات كما في قوله:

قِفْ بالمعرّة وامسحْ خدّها التربا ... واستوحِ من طوّق الدّنيا بما وهبا
وزمرةُ الأدب الكابي بزمرته ... تفرّقتْ في ضلالات الهوى عصبا
تصيّدَ الجاهَ والألقاب ناسية ... بأنَّ في فكرةٍ قدسيةٍ لقبا[4]

إذ نجد أنّ هناك علاقة ((مابين زمرة الأدب -والكابي بزمرته) ومابين (الألقاب) في الشطر الأول من البيت الثالث، والشطر الثاني من البيت نفسه، حيث جاءت لفظة (لقبا) في (مناسبة) أحسن الشاعر استغلالها))[5]

لقد عبّر الجواهري عن الجهاد والكفاح بالغنائية، وبالأسلوب الفني الذي امتاز، بالمبالغات وبالتجسيم وباستخدام الجناس، والتلاعب بالألفاظ[6]، فضلا عن ((تلاحم عناصر الصور الشعرية، ومن ثم استخدامه للرمز وصولا إلى غايات وطنية))[7]، كما نجد ذلك بوضوح تام في قصائد سياسية أخرى أمثال (عبد الحميد كرامي)[8] و(إلى الشعب

(1) ينظر: شعراء من بلادي: علي إبراهيم: 18: منشورات حمد: بيروت ط1 : 1968.
(2) ينظر: في رحلة الفكر والتجول: هادي العلوي: 21 ،23.
(3) تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 281 ،282 ،283. وينظر: الجواهري وهوية المعاناة الفكرية: د.يونس الجنابي: 7.بحث مقدم إلى اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين في2003/3/27.
(4) الأعمال الكاملة: 422: 3.
(5) تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 287.
(6) ينظر: الجواهري شاعر التجديد والثورة: 31.
(7) تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 281.
(8) ديوان الجواهري: 1 : 96.المكتبة العصرية بيروت: 1967.

المصري)[1] و(الدم الغالي)[2] و(في مؤتمر المحامين)[3] و(المحرقة)[4] و(الدم يتكلم بعد عشر)[5] و(سبيل الجماهير)[6]، فالجواهري في تلك القصائد جدد الأغراض الشعرية، فأنشأ أدبا وطنيا عصريا، بدلا من الاكتفاء بالأدب التقليدي، فالأشكال الأدبية التي كانت سائدة آنذاك هي:المقامة، والقصيدة التقليدية بأغراضها المعروفة، غير أنّ الجواهري قد جدد تلك الأغراض وألبسها روحا عصريا جديدا[7]، يقول الجواهري في قصيدة (تنويمة الجياع):

نامي جياع الشعب نامي ... حرستك آلهة الطعام
نامي فإن لم تشبعي ... من يقظة فمن المنام
نامي على زبد الوعود ... يداف في عسل الكلام
نامي على نغم البعو ... ض كأنه سجع الحمامر
نامي فان صلاح أمـ ... ـرك فاسد في أن تنامي[8]

إن الجواهري في تلك القصيدة، لم يخرق قاعدة مألوفة كالخروج على الوزن مثلا، ولكن رغم ذلك نستطيع أن نستشف منها الفن الأصيل؛ لأنه جمع في شعره بين العاطفة والخيال والفكرة، فمزجها مزجا شعوريا...يتماوج فيها صدى أفكاره المصيرية. فيتجدد فيها الزمن، وتتجدد الأحداث، فيرى الإنسان المعذب، فيرى كأنّ الحادثات والمصائب هي، مادامت البشرية في صراع دائم مع الطواغيت، ((فكل حدث جديد يرى نفسه في شعر الجواهري جديدا، وكل غرض من أغراض شعره، يتجدد معنى ومضمونا وفكرا))[9]، فالجواهري ((ممثل مطلق الصلاحية، في أن يكون لسان الأمة في أحداثها المعاصرة))[10]، فقصائده كما يصفها (جبرا) ((مونولوغ درامي تتفجر بالسخرية المترعة بالألم والحسرة على بني قومه، الذين رضوا بالسكوت على الظلم.))[11]، وبعد أن أيقن الشاعر بأنّ التصريح لم يعد يحملهم على الثورة، انتقل بهم إلى أسلوب التلميح والكناية،

(1) الأعمال الكاملة: 4 : 584.
(2) الأعمال الكاملة: 4 : 624.
(3) الأعمال الكاملة: 617: 4.
(4) الأعمال الكاملة: 2: 268.
(5) الأعمال الكاملة: 2: 272.
(6) الأعمال الكاملة: 2 : 239.
(7) ينظر: تنويمة الجياع وعصرية الأغراض الشعرية: محمد أمين احمد: 3. في ضمن البحوث المقدمة لمهرجان الجواهري الأول في 27 /2003/7.
(8) الأعمال الكاملة: 4 : 612.
(9) الجواهري وتنويمة الجياع: 2.
(10) الجواهري شاعر التجديد والثورة: 19. وتنظر: مجلة المعرفة السورية: العدد: 281 لسنة: 1985.
(11) الشاعر والحاكم والمدينة: جبرا إبراهيم جبرا: 74، في ضمن محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية.

وبصورة مقلوبة في مفاهيمها، غريبة في مداليلها، بعيدة في مراميها ومقاصدها، متسمة بالسخرية المتشعبة؛ لتشمل كل الحياة، وبأسلوب فني متصاعد، بتصاعد صور السخرية، وذلك من خلال، ((وصل أجزاء الكناية بأضدادها باستمرار؛ ليحقق الإثارة))[1]، فالشاعر لا يميل إلى((الهجاء المقذع والشتم الصريح، والإدانة المباشرة، بقدر كونه يحتج ويصنع النكتة الساخرة))[2]، فهو بدلا من أن يرثي الجياع وفقرهم ثم موتهم وفناءهم، أخذ يربت على ظهورهم، طالبا منهم أن يناموا على جوعهم، فمع جوعهم وتضورهم يكون الأمان والسلام، فرثاؤه في (ترنيمة الجياع) لم يكن نوعا من البكاء أو ذرف دموع التماسيح، كما يفعل العملاء والمحتلون[3]...، بل كان نابعا ((عن القلق والشفقة يلبس فيه حس الفاجعة لبوس السخرية، مما لا نجده كثيرا في شعر الجواهري))[4]، وقيل هو نوع من اللامبالاة، واللاعقلانية في مواجهة الواقع عن طريق السخرية والتهكم الكاريكاتوري[5] فالجواهري يجعل المتلقي في جو شعري متأزم، فالصور تتراقص، والنوم على نغم بعوض، كأنه سجع حمام...والعري والعراء يضفي على الجياع أثواب الغرام، ويدغدغ المتضور جوعا على مهد الأذى، وهو يتوسد خد الرغام. فهو يعبر عن مرحلة حالكة من مراحل تاريخ العراق، ألا وهي مرحلة الظلم والقهر في أثناء حكم المحتل وأذنابه للعراق. وتبقى القصيدة جديدة في موضوعها، طالما هناك محتل وظلم وفقر، فهي وإن كتبت في مرحلة مخصوصة، فانّ العبرة فيها بالعموم، وهنا تبدو رؤية الشاعر المبدع، ونبوءته الشعرية[6].

ومن خلال تلك القصيدة تتكشف لدينا صحة ما توصل إليه النقاد ((من توحيد العناصر الرئيسة في الشكل الفني، ويكشف بشكل خاص علاقة الشاعر بالواقع وبأفكاره، وبالقيمة الإبداعية))[7]. وظل الجواهري ملتزما بتوجهه الشعري، دون أن يؤدي بعض ما عاينه من تحولات سياسية وفنية إلى التحول عن الشكل التقليدي، ودون أن يتنازل- في الوقت نفسه- عن الوظيفة الثورية للشعر، فهو قد وفق أيما توفيق بالجمع بين ثورية الموقف السياسي، وثورية الشكل الفني. على هذا النحو وقع الجواهري في نظر الشعراء والنقاد بين نقيضين لا يجتمعان:هما قمّة التقليد، وقمّة الحداثة، بوصفه الأب الروحي للشعر الحديث كما يقول (السياب)[8].

---

(1) نفسه.
(2) الخطاب التهكمي في شعر الجواهري: قيس كاظم الجنابي: 6. بحث مقدم إلى الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ضمن مهرجان الجواهري الأول في 2003/7/26.
(3) ينظر: الجواهري وتنويمة الجياع: 3.
(4) الشاعر والحاكم والمدينة: 74.
(5) ينظر: ديوان الشعر العربي: المقدمة: 2: ن،1.اختاره وقدم له أحمد سعيد ادونيس.
(6) ينظر: الجواهري وتنويمة الجياع: 3.
(7) الجواهري جدل الشعر والحياة: د.عبد الحسين شعبان: 11.بيروت- لبنان- دار الكنوز الأدبية: 1977.
(8) الثورة من الداخل: سيد بحراوي: 62. في ضمن(الجواهري وسيمفونية الرحيل)، د.خيال الجواهري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1999.

إنّ الشكل الشعري ليس هو مجرد شكل الإيقاع في القصيدة، فشكل القصيدة هو مجمل العناصر المتضمنة في عملية إعادة تنظيم اللغة العادية؛ لتصبح نسقا جديدا، وهذه العناصر توجد على المستويات اللغوية كافة:الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي. ولاشك في أنّ المنطلق الذي دفع الجواهري إلى هذا الامتلاك هو موقفه العصري في الحياة، وفي الفن معا، فهو قرين الفن والحياة، وقد أنتجت هذه العلاقة، تنظيما لغويا مغايرا للغة الشعر الكلاسيكي، لغة حية درامية بسيطة، لغة قادرة على تقديم منحنيات التجربة الفنية، بين الذاتي والموضوعي، بين الفكري (السياسي)، والشعور أو العاطفي (الوجداني)، مستفيدا في ذلك من منجزات الحياة اليومية الثائرة بطبيعتها، ومن تنوعات أنماط الوزن والقافية، في خلق إيقاعات حية رغم شكلها الأحادي[1]، ولعل هذه الخاصية جعلت الجواهربيصنّف ضمن أدباء العالم المعروفين، وأن تترجم أعماله إلى لغات أخرى[2].

الصراع بين الشاعر السياسي الملتزم والحاكم

انقسم الشعراء - عبر التأريخ - إلى صنفين اثنين:أحدهما يهيم في كل واد، ابتغاء المال، وهو قرين الحاكم ورفيقه، وآخر يصدع بما تأمره القيم والمبادئ، فهو عدو الحاكم وخصمه، ((لأنّ الشعر عندئذ يكون فعلا دافعا إلى فعل، يحرج أهل الحكم ويقلقهم، ويضطرهم إلى معالجته باللين حينا، وبالقسوة أحيانا، وتبقى إمكانية الفعل دائما ماثلة كسيف مصلت ما دامت القصيدة قائمة))[3]. وصاحب هذا النمط من الشعر، هو الشاعر الملتزم[4] ويصح تسمية أدبه بـ (أدب المتاعب) لأنّ مهمته، ((ليست في مجرد إقناع القارئ، بل في حمله على التفكير ...إنّ الأدب طريق إلى إيقاظ الرأي، ولا أريد من الكاتب أن يريح قارئه ويلهيه، إنما أريد أن يطوي القارئ الكتاب فتبدأ متاعبه... فالكاتب مفتاح للذهن، يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم.))[5]، ويبرز هذا النوع من الأدب في المجتمعات التي تتعرض لرجات اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية؛ لأنه يجد نفسه ملزما بنصرة الحق[6]، فعندئذ يعبر عن فعله ((عن طموحات إنسانية وأمانيها وغضباتها، وأنّ عليه أنْ يفعل ذلك بصخب، وأن تكون لغته قادرة على رج الأفكار، وفرض البدهيات الخلاقة ، التي يبشر بها.))[7]، فهو المفكر الانقلابي المؤثر في في الأجيال، وأنّ مسؤوليته أكبر من مسؤولية السياسي، التي عادة ما تكون محدودة بمدة لا تتجاوب معها الأجيال باستمرار[8] فالشعراء هم الذين يوقظون الشعوب، ويوجهونهم،

---

(1) ينظر: الثورة من الداخل: 62. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل)
(2) ينظر: الأممية في الشعر السوفيتي: 55.
(3) الشاعر والحاكم والمدينة: 64.
(4) الأديب الملتزم: ((هو الذي يعتنق مبدأ إنسانيا، أو عقيدة، أو مذهبا دينيا، أو سياسيا أو اجتماعيا أو فلسفيا...ثم يلتزم به ويدعو إليه ويتحمل تبعاته، بنفس راضية مطمئنة.)): الأديب والالتزام: 34.
(5) فن الأدب: توفيق الحكيم: 178.المطبعة النموذجية: 1952.
(6) ينظر: الأديب والالتزام: 34.
(7) الإنسان المتمرد: كاموا: 209. ترجمة نهاد رضا.منشورات عويدات: بيروت -لبنان-1975.
(8) ينظر: المنهج الفلسفي للرفض العربي: حازم مشتاق: 61: مطبعة جامعة بغداد: 1977.

ويضعون لهم المثل العليا[1]. يقول (شلي):((الشعراء كهنة الوحي الذي لا يدرك. هم مرايا الظلال الهائلة التي يلقيها المستقبل على الحاضر، الكلمات التي تقول ما لا تفهمه، الأبواق التي تصدح داعية إلى القتال، دون أن تعي ما توحيه، المؤثر الذي يحرك ولا يتحرك. إنّ الشعراء هم مشرعو العالم غير المعترف بهم))[2]. فالشاعر إنسان أعلى ميزه الله بقوة الفكرة، وحدة العاطفة وسمو الخيال، فهو من أصحاب الرسالات الفكرية، الذين يشعرون قبل غيرهم، ويفكرون أكثر من غيرهم في الكمال، ويتخيلون دون غيرهم ما وراء الواقع[3] إنّه إنسان يدافع عن حرية الكلمة بحق، لا ليكسب من ورائها شيئا، ((إنّه يقول الشعر، لميل في نفسه أو فكرة تضطرب في ذهنه أو لخاطرة عنت له، لا ليرضي حاكما، أو ليكسب عطاء.))[4]، فهو صوت الضمير في الأمة، خلق لقول الحقيقة، ثمة قرابة كبيرة تتضح أمام القارئ بين القرن (الثامن عشر) الانجليزي، وبين (النصف الأول) من القرن العشرين، لأسباب يجدونها وجيهة[5] ((إذ وجد كبار رجال المجتمع أنّ الشعراء أداة نافعة للسياسة. وكان الشعراء يعتبرون أنفسهم أصوات الضمير الاجتماعي، وعليهم أن يقفوا ضد المجتمع والسخف والادعاء والملق والفساد.))[6] والحقيقة أنّ الشاعر قد خاض غمار السياسة منذ زمن سحيق، فالشاعر مرآة مجتمعه منذ القديم، إذ كلما جدّت أحداث، هبّ لتصويرها لاسيما في المجتمعات غير المستقرة، التي تتعرض لهزات، وحروب واضطرابات سياسية، ولو تتبعنا التاريخ لوجدنا الشعراء في العصور العربية، قد صوروا حياتهم، ويعد الشعر السياسي الظاهرة البارزة في ذلك الاتجاه[7].

إنَّ الشعراء قد تحولوا إلى سجل للأحداث لم يقف الشاعر مع الحاكم، بل وقف مع أبناء شعبه يبصرهم بحقوقهم[8]؛ ((لأنّ مسؤولية الأديب تدفعه، وتلح عليه، للمشاركة في الكفاح والعمل، على نصرة الحق، وتنبيه الناس إلى معرفة ما يحيط بهم من ظلم وجور.))[9]. بذلك بدأ الشاعر السياسي، يزاول مهمة رفض قيم الاستبداد، وراح يكسر بكل جرأة النظرية القديمة القائلة:بأنّ السلطان ظل الله على الأرض [10] .

إنّ الفنان تجلّ من تجليات الحرية، ولا يخضع لأي نظام آخر، بل يتحدى اي نظام، فالكفاح لا يخلق الفنان، بل الفن يجعلنا مقاتلين. الفنان يقف بسلاحه في وجه الدنيا[11]. إنّ

---

(1) ينظر: الأديب والالتزام: 54.
(2) الحاكم والشاعر والمدينة: 65.
(3) ينظر: الشعر بين التطور والجمود : العوضي الوكيل: 104: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر: 1964.
(4) تاريخ الشعر العربي الحديث: 754.
(5) ينظر: من الغربة حتى وعي الغربة: فوزي كريم: 83.
(6) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه: إليزابيث درو: 212: ترجمة: محمد إبراهيم الشوشي: بيروت: 1961.
(7) ينظر: الأديب والالتزام: 101.
(8) ينظر: تطور الشعر العربي الحديث في العراق: 112.
(9) الأديب والالتزام: 101.
(10) ينظر: الخلافة: توماس ارنولد: 100: ترجمة جميل معلة: بغداد: 1969.
(11) ينظر: الإنسان المتمرد: كاموا: 261، 267.

على الأديب أن يشارك في القضايا المصيرية التي تخص أمته، وإلاّ أصبح مسيئا إذا لم يضع موهبته ونفوذه وشخصه في خدمة القضايا العادلة[1]، في خدمة المظلوم ضد الظالم[2]، وأنّ ما يدفع الأديب نحو السياسة هو:((بأن ينعم بعالم جديد حر لا يقلقه الصراع لأجل السلطان، بين أمة وأمة، أو بين طبقة وأخرى.))[3]؛ لذلك انغمر كثير من الأدباء في في الشرق والغرب ((في السياسة ومن النادر أن نجد أديبا معروفا إلاّ كانت له مشاركة في السياسة قليلة كانت أم كثيرة))[4]، والعراقيون أكثر شعوب العالم، ولعاً بالسياسة، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية[5]، بل أنّ ((الشعر العراقي أكثر شعر عربي ملتزم سياسيا في تاريخنا الحديث، وهذا هو الذي يفسر أهمية وغزارة مادته في الثورة الجزائرية، إذا ما قورن بشعر الأقطار العربية الأخرى.))[6]

إنّ أدب العالم الجديد، الذي ولدته الثورة، قد بدأ بالشعر[7]، وأنّ كل الثورات في العالم بدأها العلماء بالقلم[8]، لقد كان الواحد منهم ((داعية سياسية يطرح الهموم الجماهيرية الجماهيرية قبل أن يهتم بمستوى إبداعه الفني...وكانوا يناضلون بقصائدهم وبالبندقية وسائر ألوان النضال.))[9] ومما يثير العجب أنّ هؤلاء الشعراء قد جهروا بالتنديد بالحكام، وراحوا يسلقونهم بألسنة حداد[10]. صحيح أنّ الشعر لم يؤثر في القرار السياسي، ولكنه استطاع تعبئة الجماهير، وتعرية الحكام وتعميق الوعي القومي[11]، بذلك أصبح الشعر سلاحا لمقارعة الحكام، ((ولا وجه للمقارنة ما بين نبرة شعراء (القرن العشرين)، وبين ما قرأناه لشاعر القرن(التاسع عشر)، ولعل هذه الحرية النفسية والوضع الحاد في تناول قضايا الحكم والسياسة، لم يكن سببهما التنامي المضطرد لوعي الشعر حسب، وإنما يضاف إلى ذلك، فهمهم لدور الشعر وهدفه، باعتباره سلاحا يقارعون به الظلم))[12].

---

(1) ((إن الشاعر (سبندر) دخل السياسة من أجل الدفاع عن (اسبانيا) ففشل وقال: ((أن الشاعر لم يخلق لسياسة بل للقلم.))الأديب والالتزام: 106. وفي أدبنا العربي شعراء كثر قد خاضوا غمار السياسة دفاعا عن الحق العدل فمن القديم: (عروة بن الورد) و(حسان بن ثابت) و(بشار بن برد) و(دعبل الخزاعي) و(ابن الرومي) و(المتنبي)، وفي العصر الحديث ظهر شعراء وطنيون وقفوا ضد الاحتلال أمثال: (شوقي) و(حافظ) و(الكاظمي) و(الرصافي) و(البصير) و(الزهاوي) و(الجواهري).

(2) ينظر: الإنسان المتمرد: 107،108.

(3) الشاعر والحياة: ستيفن سبندر: 102. ترجمة: د.مصطفى بدوي، من سلسلة (الألف كتاب) رقم: 258 258 مكتبة الأنجلو المصرية.

(4) الأديب والالتزام: 102.

(5) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: د.علي الوردي: 354: دار مكتبة المتنبي: بغداد: 1976.

(6) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي: 15.

(7) ينظر: الأممية في الشعر السوفييتي: 49.

(8) ينظر: الأدب العربي والفكر الثوري المعاصر: 5.

(9) الشعر والثورة: د.جليل كمال الدين: 244. بغداد: 1957.

(10) ينظر: الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث: 204.

(11) ينظر: التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 234.

(12) تطور الشعر العربي الحديث في العراق : 114.

إنّ الشعراء العراقيين حملوا راية الشعر العربي الملتزم، بالرغم من جور السلطات (العثمانية) و(الانكليز) ومرحلة (الحكم الملكي)، لقد كانت أصواتهم تمثل صرخات احتجاج، ووسيلة تحريض[1]، ولكن النتيجة الملاحقة والاضطهاد والتغرب، وصولا إلى النهاية المأساوية المعروفة:وهي الموت في الغربة[2]، وهذه الظاهرة لم تكن وليدة مستجدات وأحداث، وإنما هي ظاهرة قديمة، يمكن رصدها وملاحظتها في التاريخ العراقي القديم، والتي برزت نتيجة منهج العنف الدموي في الحياة العراقية وليس هناك أمّة أوغلت بسفك دماء أدبائها-لاسيما الشعراء منهم- مثل العراق وأشهر من شملهم القتل و التنكيل الشاعر:(الكميت بن زيد) و(دعبل الخزاعي) و(بشار بن برد) و(ابن الرومي) و(المتنبي)[3] و(الحلاج) وغيرهم، ممن انقلب عليهم الملوك في ساعة غضب أو توتر طائش، ليكونوا عند الرفيق الأعلى، وآخرين ممن نجوا من الموت هربا أو اعتذارا أو اختفاء[4].

واستمر مسلسل القتل والتنكيل بالشعراء، مرورا بكل تلك المراحل، ووصولا إلى عصرنا الحديث[5] مع الشعراء الذين لا تنسجم مواقفهم السياسية مع السلطة؛ لأنّ الأحزاب السياسية بعد الحرب العالمية الأولى تحالفت مع العسكر لتسلم السلطة، وكانت ترى في المفكرين والأدباء منافسا قويا لها، فعمدت إلى تنظيم حملات قاسية ضدهم[6] ((فمشهد الشاعر الهارب من سلطة الحاكم وقسوته ، قد أصبح أمرا مألوفا))[7]

فقد هرب الشاعر (بدر شاكر السياب) في مطلع (الخمسينات) إلى (إيران)، ومنها إلى (الكويت). ومن قبل فقد تعرض (الجواهري)إلى النفي والإبعاد إلى مناطق نائية في العراق ثم هروبه إلى إيران في ثورة (رشيد عالي الكيلاني)[8] ويتساءل الجواهري بعد أن أيقن المصير الذي ينتظره: ((لماذا يموت (الرصافي)في عاصمة وطنه على سرير حديدي عتيق مما يباع في سوق المزاد بأقل من دينار؟ ولماذا لا تسدل عنده ستارة حتى وإن من

---

(1) ينظر: شعراء عراقيون: منذر الجبوري: 5: دار الطليعة: باريس: 1977.
(2) ينظر: الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 30. وينظر: الشعر والثورة: 244. وينظر الأديب والالتزام: 78. وينظر: تاريخ العنف السياسي في العراق: باقر ياسين: 76، 390.
(3) ((ولعل خوف الحكام من لسان الشعراء، هو الذي دعا كافورا بعد فرار المتنبي منه، أن يرسل إليه من يقتله خشية لسانه)) الجديد في الأدب: حنا فاخوري: 468: دار الكتاب اللبناني: بيروت: 1967.
(4) ينظر: تاريخ العنف الدموي في العراق: 76 ،390. وينظر: البداية والنهاية: ابن كثير: 1: 312. دار إحياء التراث العربي: القاهرة. وينظر: الأغاني: الأصفهاني: 2 : 186: دار الكتب المصرية: 1929.
(5) لم يقتصر الاضطهاد والتنكيل على شعراء العرب، وإنما شمل غيرهم من شعراء الأمم الأخرى ((فالشاعر الألماني والكاتب المسرحي (برتولت برخت)، 1956 وقف ضد النازيين فأمر(هتلر) بحرق كتبه وكتب زملائه كما حصل ضد الكتاب المتنورين في القرون الوسطى لذلك اضطر للخروج من ألمانيا)): مجلة الوطن العربي: 66. باريس العدد 67 في (2) حزيران 1978.
(6) ينظر: الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 6.
(7) تاريخ العنف الدموي في العراق: 146.
(8) ينظر: الرواد يدخلون عالم الأبدية من بوابة المنفى: 8.

قماش رخيص على النوافذ الزجاجية التي تضج بما يشبه وهج النار من قيظ العراق؟ ولماذا لا يوجد كرسي في حجرته وإن من خشب؟.... ولماذا يرحل (الكاظمي) بعيدا عن وطنه معدما ومحتاجا؟ ليموت في القاهرة.))[1]، وبعد تلك الإستفهامات المتكررة يجيب فيقول: ((أنا واحد من هؤلاء. وكلنا في حقيقة الأمر لا نتجرأ لا بقليل ولا بكثير... أنا واحد من الضحايا النواشز في وطنهم العراق.))[2] ولعل خير من صور مأساة الشعراء -عبر التاريخ- مع الحكام هو الشاعر الكبير (نزار قباني) الذي يقول: ((ما أشقى العصافير في الوطن. ما أشقى العصافير التي كتب الله عليها أن تقول الشعر في بلادنا. فهي إما أن تموت بسيف القمع، وإما أن تموت بسيف الخصي، وإما أن تموت بسيف المنفى. لا كرامة الشاعر يغني في الوطن الذي (اخترع الشعر)، فجدنا (امرؤ القيس) مات بضربة شمس، وهو يبحث عن عظام جده في (الربع الخالي) . والعظيم أبو الطيب (المتنبي)، لا يزال مطلوبا حيا أو ميتا بناء على تقارير المخابرات العربية؛ لأن شعره ضد أمن الدولة. ولا تزال شرطة (الانتربول) تطارده منذ (العصر العباسي) حتى اليوم... والعظيم الآخر، (محمد مهدي الجواهري) مات يتيما، دون أن يجد نخلة عراقية واحدة (بين الرصافة والجسر ترضعه حليبها...أو تغمره الحصول على قبر لشاعر في هذا الوطن العربي المكتظ بالحزن من طنجا إلى كربلاء.))[3]

صراع الجواهري مع الحاكم

إنّ فلسفة الصراع، قد تجذرت في أعماق النفس العراقية منذ القديم، فالموت والعنف والصراع والقسوة، تستوطن في العراق منذ أيام (سومر)، والعراقيون يسيرون نحو العنف دون إرادتهم، ومنذ تلك القرون السحيقة في القدم، في(الألف الثالث) قبل الميلاد، وحتى الاحتلال الانكليزي للعراق عام (1917)م دارت على الأرض العراقية طاحونة الحروب[4]، فضلا عن الصراع المزمن- عبر التاريخ - بين الحاكم والمحكوم[5]؛ مما انعكس بآثارة على نفسية الفرد العراقي، فأصبح شخصية[6]عصية على الحاكم في كل زمان[7]. فالناس يعتقدون، أن كل بلاء يصيبهم هو من الحكومة، فإذا ثار الغبار هاجموا الحكومة[8]. يقول الجواهري:((ن العراق بلد قد اتعب الحاكمين والمحكومين على مدى التاريخ))[9]. والجواهري ابن بيئته: ((أنا ابن مجتمعي، إذا لم أكن هكذا فلست إنسانا، نحن

(1) مذكراتي: محمد مهدي الجواهري: 1 : 267.دار المنظر للطباعة والنشر: لبنان: بيروت: 1999.
(2) مذكراتي: 1 : 267.
(3) لا قبر لعصفور يتكلم اللغة العربية: نزار قباني: 319. مقال في ضمن كتاب (الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(4) ينظر: تاريخ العنف الدموي في العراق: 155 ،231 ،340.
(5) ينظر: الشعر السياسي في القرن التاسع عشر: 314.
(6) ينظر: تاريخ العنف الدموي في العراق: 334.
(7) ينظر: الحاكم والشاعر: زهير الجزائري: مجلة الثقافة الجديدة: 48: ت 1977: 2.
(8) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: 366.
(9) مذكراتي: 1 : 205.

نحن نعيش قبليات حتى الآن غير صافين، وأنت تريدني وحدي أن أكون صافيا!!))[1]، فهو ينحدر إذا من تلك البيئة، حيث يتجاور التاريخ مع رمال الموت، والجدب الساخن مع برودة مياه الفرات، ولّد هذا المزاج المتمرد والمتناقض، الساعي إلى التغيير ولو من أجل التغيير[2]، يقول الجواهري:((جذوري بقيت في تلك البقعة المجذبة، بين الصحراء والبساتين، فرغم (90) سنة إني ذلك الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة، وكل الصراع والمتناقضات قائم على هذه الحقبة الأولى من حياتي.))[3]

لقد تغلغلت الثورة في نفوس العراقيين أكثر من غيرهم من الأمصار[4]، ((والعراقيون يعتبرون الحكومة عدوة لهم، وهم يفتخرون بعصيان أوامرها))[5]، ويرجع ذلك إلى أثر البيئة الجغرافية في التكوين النفسي، وفي التركيب المزاجي، ((فلقد ظهر جليا في أهل العراق من شدة ومراس، وصبر على المصاعب وروح مشحونة بالتحدي لا يقبل الاستكانة ولا يستسلم للحكام))[6]، وقد اشتهرت قبائل العراق بالثورة على الحكام[7]، وارض العراق هي التي أنجبت الجواهري وأورثته الصراع فقد عاش (الدولة العثمانية) و(الاحتلال البريطاني)، ثم مملكة(نوري السعيد) ، ثم انقلاب (بكر صدقي) و(ثورة رشيد عالي)، ثم (حلف بغداد)، ثم سقوط (النظام الملكي)، ثم ثورة (1958) وما تلاها من عواصف فصارع الجميع[8]، فشخصيته تتطابق مع النموذج الذي يسميه: (علماء النفس) بالنموذج مارس (إله الحرب في الأساطير)، إن النموذج مارس يبحث عن الصراع والتنافس والخصومة[9]. إذا غضب على أحد يعني انتهاء العلاقة، يريد كل شيء بضربة واحدة[10]. وعندما اطلع (فاروق البقيلي) على مواقفه الجريئة قال فيه: ((إن ارض العراق لا تنبت إلا رجالا لهم طبع ناري))[11]، ويعترف الجواهري بذلك: ((أنا بطبعي حاد متوتر

(1) حوار مع الجواهري: أجراه معه محمد الجزائري: جريدة الجمهورية: (العدد): 2485،الملحق الأسبوعي: السبت ت 2: لسنة: 1975.
(2) ينظر: الحاكم والشاعر: زهير الجزائري: مجلة الثقافة الجديدة: 48: لسنة: 1977. وينظر: مذكراتي: 1: 31-40. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: 2: 335. وينظر: الثورة العراقية الكبرى: عبد الله الفياض: 16. وينظر: الجواهري وسيمفونية الرحيل: 160.
(3) رحلة في ذاكرة الجواهري: ماهر عزام: 217.في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(4) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: 365.
(5) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: 290: 1.
(6) الجواهري شاعر من القرن العشرين: 67.
(7) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: 179.
(8) ينظر: رحلة الجواهري ورحيله: أسطورة قرن: عبد الرحمن منيف: 228.في ضمن(الجواهري وسيمفونية الرحيل). الرحيل).
(9) ينظر: علم النفس والأدب: 160.
(10) ينظر: لماذا هجوت الجواهري: خلدون جاويد: ،80 ،81 ،84 ،107. دار الأضواء: 3 بيروت-لبنان-لبنان-: لسنة: 2003.
(11) الجواهري: ذكريات أيامي: فاروق البقيلي: 6.دار الفارابي: بيروت: (بلا تاريخ).

ومتأزم، وهو ما ينعكس على حالتي في رد الفعل، أحيانا يلتقي توتري الشخصي مع التوتر السياسي))[1]، فهو مخلوق لا يستوي إلا بعد الثورة[2]وهو القائل:

أجب أيها القلب الذي سر معشر ... بما ساءه من فادحات القوارع
بما ريع منك اللب نفست كربة ... وداويت أوجاعا بتلك الروائع
قساة محبوك الكثيرون إنهم ... يرونك- إن لم تلتهب – غير نافع
وما فارقتني الملهبات وإنا ... تطامنت حتى جمرها غير لاذعي[3]

إنّه كمن يعيش في أيام الجاهلية يحب الصراحة والصدق والمجابهة، ليكون حر الضمير صريح القول[4]، حتى بات يعرف بأنه: ((إذا اجتمع الشعر والتحدي صار المشهد جواهريا))[5]، فالعنف الشعري والجواهري قرينان متلازمان، لا يمكن الفصل بينهما ((بأنّ الجواهري شاعرا، هو نفسه الجواهري سياسيا، فان الفصل بين الشخصيتين متعذر.. فان الحرارة التي تشعها قصائده السياسية تدل من قريب على المصدر الذي خرجت منه، وهو فوهة الانفعال))[6]، فالصراع والتناقض سمة الشاعر ومصدر قوته، فهو يحمل التناقض والعنف والتحدي طيلة قرن من الزمن. إنه يكره العنف، ولكنه يلازمه[7] ، فهو يعترف بأن الصراع والعناد من دأبه، منذ بداياته يتوعد وكأنه في معركة دائمة[8]، كما في قصيدة (الاعتراف):

وكم من منطق حرّ نزيه ... أزّيفه عنادا بالجدال
مخافة أن أُرى فه أخيذا ... ومغلوبا كأنّي في قتال[9]

إنّ الجواهري يعد شاعر الصراع والمقارعة، متأسيا في صراعه بالشاعر الهجّاء (الحطيئة)، ويعده جده، وينكر على من شتموه، فهو لا يستحق الشتم؛ لأنه كان صادقا في صراعه[10]. ويشبه الجواهري في صراعه مع الحكام إلى حد كبير الشاعر (المتنبي) إنهما

---

(1) الجواهري جدل الشعر والحياة: 10.
(2) ينظر: لماذا هجوت الجواهري: 72.
(3) الأعمال الكاملة: 3: 396.
(4) ينظر: دراسة في طبيعة المجتمع العراقي: 92.
(5) الجواهري شاعر استثنائي فريد: عبد الحسين شعبان: 88.ضمن(الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(6) في رحلة الفكر والتحول: هادي العلوي: 22.في ضمن كتاب(محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية).
(7) يقول الجواهري: ((أنا في حقيقتي أكره العنف وأشعر أحيانا أن عنفي في غير محله فأشجب نفسي، ولكنني لا أستطيع إلا أن أكون كذلك مثل بطل (بلزاك) في رواية (الزواج الضائع)، وحين قرأت الرواية قلت هذا أنا)): حوار مع الجواهري جريدة الجمهورية العدد: 2485 ،الملحق الأسبوعي، السبت ت2 : 1975.
(8) ينظر: ملامح من شاعرية الجواهري: د.سحاب محمد الأسدي: 118: مجلة كلية التربية الأساسية: العدد43، لسنة: 2005.
(9) الأعمال الكاملة: 1: 173.
(10) ينظر: الجمهرة وعبق الأزمنة الغابرة: ميخائيل عيد: 77. في ضمن الجواهري وسيمفونية الرحيل

عانيا مرارة الغربة، وقسوة الصراعات والمجابهات الحادة[1]. ولقد دلّت الأحداث بأن الجواهري كسلفه (المتنبي) قد وقف في وجه الظالمين، مقتحما عليهم بيوتهم، وحشدوا عليه المغريات وقد رفضها، حفاظا على فنه ووطنه[2]، فالحكام في شعر الجواهري، طغاة دائما يتصفون بالغدر والحقد، فالعدو دائما هو الفئة الحاكمة[3]. يقول الجواهري:((كنت بطبيعة مزاجي ممن يغاضبون الحكم والنظام))[4]، وقد قال لـ (محمد الصدر)-عندما طلب منه زيارة الملك- ((سيدنا يقولون عن هذا الملك، إنه كذاب، قلت ذلك مكررا، وأنا أجرجر ذيول مجالس (النجف) والكثير من ثرثراتها عن السياسة وعن الملك والحاكمين، وكل منهم يتقعر بما يشتهيه...قلتها وأنا مشبع بذلك كله من حيث لا أشعر.))[5]، فمن هذا المنطلق يبدو أن شاعرية الجواهري غدت تكتنز بـ(هم) مواجهة الآخرين أكثر من أي شيء آخر، فأغراضه الشعرية الأخرى لا تحتل إلا مساحة يسيرة، قياسا إلى شعره السياسي[6]، فقد عاش عوالم اختلط فيها الشعر بالسياسة والسياسة بالشعر[7]، فهو يقف في طليعة الشعراء الكبار، ليس بشعره فحسب، وإنما أيضا بمواقفه غير المهادنة، وكان في ذلك رافضا كأنه أحد صعاليك العرب[8]، متمردا على القهر والتسلط، وفي شعره قيمة الرفض، لكل ما هو سائد، وهي إرادة الفعل التغييري[9]، فكان فكان رائدا في التعبير عن نضج الوعي القومي في تلك المرحلة، موضحا بأن الحكومات ما هي إلا هياكل ميتة، وأن الشعوب في معزل عنها[10]، ((ففي كيان الأمة انشطار وفصم، وكلما التأم الكيان من ناحية، وقع فيه انشطار وفصم من ناحية أخرى، والشاعر يجسد التحدي القائم بين الشطرين.))[11]، وقد كان هذا التحدي متسما بالجرأة[12]، حيث كان يوقّع باسمه الصريح في كل ما يكتبهوينشره، دون أن يتستر وراء (ألقاب)، كما كان

(1) ينظر: رحيل آخر العمالقة: فايز العراقي: 233. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(2) ينظر: ملامح من شاعرية الجواهري: 133.
(3) ينظر: الشاعر والحاكم والمدينة: 57-60.
(4) مذكراتي: 181: 1.
(5) المصدر نفسه: 1: 185.
(6) ينظر: لغة الشعر الحديث في العراق: د.عدنان العوادي 342: د.عدنان العوادي: 342. دار الحرية للطباعة: بغداد: 1985.
(7) ينظر: مذكراتي: 14: 1.
(8) ينظر: الجواهري..شاهد قرنين و. د.صابر فلحوظ: 96. في ضمن الجواهري وسيمفونية الرحيل.
(9) ينظر: قف بي فلست بمأتم الرثاء: محمود أمين العالم: 288.مقال في ضمن(الجواهري وسيمفونية الرحيل)
(10) ينظر: التيار القومي في الشعر العراقي الحديث: 233.
(11) محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية: 57: إعداد فريق من الكتاب العراقيين: بغداد: 1969.
(12) تعلمت الجرأة والوطنية الكاملة وكلمة الحق من (الرصافي) ، فقد كان يقول كلمة الحق، ويؤمن بحرية بحرية الفكر وصدم الجمهور، وصدم التقاليد. ينظر: الجواهري...ذكريات أيامي: فاروق البقيلي: 193.

يفعل أرباب بعض الصحف، وكثيرا ما دفعته جرأته، إلى استعمال أشّد العبارات عنفا، في مهاجمة الجهة التي ينتقدها[1].

إنّ الجواهري في قصيدة: (يا ابن الفراتين) يعلن عن مسؤوليته بين أبناء قومه، المسؤولية التي توجب عليه، أن يكون لسان صدق، لا يخشى في أدبه لومة لائم[2]، فلا بد بد من الصراحة في القول، وفي المجاهرة بالرأي، وبضرورة الصدع بكلمة الحق مهما كان عقبى ذلك.

يا ابن الفراتين قد أصغى لك البلد ... زعماً بأنك فيه الصادح الغرد
زعمٌ بحبك منه الفخر إن صدقوا ... أو لا. فواجد همٍّ بثّ ما يجد
وقل مقالة صدق أنت صاحبُها ... لا تستمِنّ، ولا تخشى، ولا تعد
وما تخاف. وما ترجو وقد دلفت ... سبعون مثل خيول السَّبق تطّرد[3]

وفي قصيدته (المقصورة) يقول:

بماذا يخوّفني الأرْذلون ... وممّ تخاف صِلالُ الفلا؟!
أيسلب عنها نعيم الهجير ... ونفح الرمال وبذخ العرا !
بلى! إنّ عندي خوفَ الشُّجاعِ ... وطيشَ الحليم وموت الردى
إذا شئتُ أنضجت نضج الشِّواء ... جل ودا تعصَّت فما تشتوى[4]

هذه الأبيات تكشف عن شجاعة الجواهري إزاء أعدائه، إذ كان يحيطه الموت من كل جانب، ولكنه ما هان ولا حزن، إذاً كيف يجرؤ من يتهمه بالخوف[5]. وفي قصيدة :(جيش العراق) التي نظمت بعد سقوط (النظام الملكي) أنه لم يبق في نفسه شيئا-خلال تلك المرحلة- لم يقله في أعدائه ، كما في قوله:

لم يبق شيء لم نقله تشكيا ... فيما مضى بالمصرّحات وبالكنى
كُنَّا نحذِّرُهم ونضرب راعيا ... مثلا لهم، وقطيعه مثلاً لنا
كنا نقول لهم أولاء نعالهم ... من خدّكم أعلى وأشرف موطنا
أنا ذاك الفرد المخلِّد امّةً ... فيما اصطلى، وبما أرتعى، وبما جنى
ستون عاما لم أحاول ساعةً ... أنْ اختفي عمّن هنالك أو هنا[6]

(1) ينظر: الجواهري صحفيا: سليم طه التكريتي: 214. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(2) ينظر: المؤتمر بين بغداد والبصرة: العوضي الوكيل: 104: وزارة الثقافة والإعلام: بغداد: (بلا تاريخ). وينظر: هامش الأعمال الكاملة للجواهري: 908.
(3) الأعمال الكاملة: 5: 909.
(4) الأعمال الكاملة: 3: 478.
(5) ينظر: ملامح من شاعرية الجواهري: 129.
(6) الأعمال الكاملة: 4 : 706.

إنّ الجواهري-وفي جميع مراحله - كان يمثل صوت الأمة في مواجهة الحاكم، ((فصراعه صرخة احتجاج على انحراف البطل.))[1]انه البطل المأساوي الذي تتشخص تتشخص فيه العواطف الجماعية[2]، فهو لسان الشعب، وفي ذلك يقول:

وأنا لسان الشعبِ كلُّ بليّةٍ تأتيه أحْمِل ثقلها وأصوّر
اني لأحسب حين أخبر ذمتي أنّ البلاد إلى ضميري تنظر[3]

وفي قصيدة (ذكرى المالكي)، يختزل الجواهري العراق كله في شخصه، فيقول
أنا العراق، لساني قلبه ودمي فراته، وكياني منه أشطار[4]

ولعل (جبرا إبراهيم) قد تنبه - بعد استقرائه لتاريخ الشعر العربي- إلى حقيقة أغفلها النقاد، والمتمثلة بـ :(التمرد السياسي والذاتية النرجسية)، ((وكلتا الفكرتين متصلة بالأخرى. إنهما الشقان من نزعة البطولة التي يتألف منها الغضب والنرجسية. إن البطولة تنبع من هذه الذات الضخمة التي تجسد الشمم البدوي، والرفض، وتمجيد الصراع تحقيقا للذات، فالشاعر هنا بطل على غرار أوديبي))[5] يقول الجواهري:

وهل أنا إلاّ شاعر يرتجونه لنصرة حقٍ أو للطمة معتدي
وعندي لسان لم يخنّي بمحفل كما سيف عمرو لم يخنه بمشهد[6]

ثم يكشف الشاعر عن سلاحه الذي ذخره لمثل تلك المجابهة، إذا كان عليه لزاما خوض غمارها[7]. فيقول في قصيدة: (شباب ضائع):

ذخرت لأحداث الزمان يراعا يجيد نضالا دونها وقراعا
وأعددته للطارئات ذخيرةً يزيح عن الشر الكمين قناعا
وألفيتني في كل خطب ينوبه أدافع عنه ما استطعت دفاعا
وهل أنا إلا كالمؤدّي رسالة رأى كتمها حيفا بها فأذاعا[8]

إنّ مهمة الشعراء هو التحرش بالحكام، كما في قصيدته:(لعبة التجارب):

---

(1) الإنسان المتمرد: 238.
(2) ينظر : محمد مهدي الجواهري دراسات نقدية: 48.
(3) ديوان الجواهري: 4: 35.
(4) الأعمال الشعرية الكاملة: 4: 691.
(5) الشاعر والحاكم والمدينة: 66.
يقول فرويد : ((البطل هو الابن الذي إذا ما قوى عوده واشتد ساعده، تمرد بكل ما لديه من رجولة على أبيه ليزيحه أو يقتله، كما فعل أوديب إذ قتل أباه.)) نفسه.
(6) ديوان الجواهري: 2: 15.
(7) ينظر: ملامح من شاعرية الجواهري: 124.
(8) الأعمال الكاملة: 363: 2.

ولكـــن دأب الشـــاعرين تحـــرُّش ومـــن عـــادة الكتّـــاب خلـــق المتاعـــب[1]

إنّ نـزال الشاعر والحـاكم، أشبه بمصـارعة إبليس للملاك جولـة بجولـة، والسقوط محال، ولا يموت أحد ولا يغلب أحد، يقوم الشاعر والحاكم فيتسامران قبل أن يعودا إلى الحلبة[2]، فهو نـادرا مـا يجد نفسـه في صـف الحـاكم، إذ يعين سكرتيرا في (البلاط) عام (1926)، ولكنـه يُبعد، ويؤيد انقلاب (1936)، ولكن تأييده لا يدوم إلا أشهرا، ويصبح نائبا ، ولكنه يستقيل، ويؤيد (عبد الكريم)، ولكن يكره على الرحيل، فهو في صراع دائم مـع الحـاكم، ولابـد لـه فـي النهايـة أن يهجـره بالمخاصـمة[3] ؛ لأنـه يحملهـم علـى الـرقص كالقرود إذ يقول في (قارعة الطريق):

((قال:ومتى عهدك بالمدينة وأهلها ؟ قلت منذ تركتها...أما عهدي بأهلها ، فمنذ أن تشاجرت مع حاكمها، لكثرة ما يحملهم على الرقص كالقرود..وقد استمروا يرقصون حتى بعد أن طردني الحاكم شّر طرد من أجلهم .. طردني أنا ومن معي ...))[4].

إن شعر الجواهري هو تعبير عن معاناة الشعب العراقي، ولا يمكن أن نفهم صراع الشعب ما لم نقرأ الجواهري [5]، فقد مثلت قصائده صورة العربي الثائر، دفاعا عن قيمة عربيـة إنسـانية راسـخة فـي أعمـاق هذه الأمـة، فهو قد صـرخ في وجـه الملوك، واندمج بصوته مع أحداث عصره [6]، متمردا على الإغراءات رغم كرسي البرلمان، إلاّ انّه لم يخضـع، وأرادوا إسكاته بقطعـة ارض، لكنـه أبـى إلا أن يبقـى كمـا هـو، يقـول: ((رغم انشغالي بالأرض إلّا أنني لم أتغافل عما يجري على الشعب من ظلم واضطهاد.))[7] . فقد عاش قرنا من الصراع، وهو يعانق الموج ولا يركبه[8] ، وتحديدا منذ(العشرينات) دخل الجـواهري مرحلـة صـراعات حـادّة مـع السـلطة، غيـر أنّـه - بـرغم مرارتهـا- انتصـر فيهـا جميعا؛ لبراءته، ويسرد بعضا منها في قوله: ((بعد مهرجان المعرة، ورحلة (يافا) شهدت حياتي حوادث (أشدّ من السيوف مضاربا) على حد قول (المتنبي)، لا يزال أثرها باقيا في نفسي، وذيولها تنسحب عليّ في كل خطواتي، فهي على خلاف تلك المضارب، تركت من الآثار والجروح ما هو أشد وأوجع... ومن هذه المضارب علاقتي بالملك (فيصل)

---

(1) الأعمال الكاملة: 329: 2.
(2) ينظر: الجواهري وسيمفونية الرحيل : 258.
(3) ينظر: الشاعر والحاكم والمدينة: 60.
(4) الأعمال الكاملة: 3: 387.
(5) ينظر: الجواهري بين مقارعة الطغاة والتشريد: مجيد الراضي: 131.في ضمن(الجواهري وسيمفونية وسيمفونية الرحيل)
(6) ينظر: أبو الطيب وظواهر التمرد في شعره: د.زهير غازي زاهد: 17. ملحق مجلة كلية الآداب: العدد15: سنة1979. وينظر: حين التقيته عند المحقق: د.فكتوريا نعمان: 189. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل).
(7) مذكراتي: 2 : 132. وينظر: الجواهري وسيمفونية الرحيل. في ضمن مقال: (كتب بمخيلة عباسية وجاور المتنبي وصار محطة تاريخية: د.فاطمة المحسن: 297-299. وتنظر: مجلة الجوهرة: جابر شنكير(عدد): 1: بغداد: لسنة2004.
(8) ينظر: جوهرة المرارة والارتقاء: هادي العلوي: 173. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل).

وتقلباتها في العشرينات والثلاثينات))[1] ومرورا بالأربعينات، وانتهاء بالخمسينات وبداية وبداية الستينات، فهو الرجل المقاتل دون هوادة، مقاتل على طريقته في التغرّب والمواجهة، وعبر صراع مع الحاكم، إذ يقول:((لقد كنت مقاتلا فاشلا أحارب على أكثر من جبهة، ورغم الجراح الكثيرة انهض في كل مرة...المجتمع يعج بالصراعات، وكل من يدخل الحلبة يدفع الثمن))[2]

على الرغم من شبابه المضاع، وكهولته المهدورة، نتيجة صراعه مع الحاكم بقوله الحقيقة، إلا انه كان يلتذ بذلك الصراع، كما في قصيدة (الباججي في نظر الخصوم):

ديدني تصوير ما في خاطري ... وأنا معرى بهذا الديدَنِ
أنا من أجل لساني مبتلى ... رغم إحساسي بعيش خشن
ولقد تعلمُ ما يلحقني ... من أذىً من بثّ هذا الشجن
غير أنّي واجدُ في مثله ... لذّةَ العاشق والمفتتن
ومن العار على الشاعر أن ... يحتمي في شعره بالإحن[3]

ولذة الجواهري في صراعه نابعة من كونه يترك خدوشا على وجه الحاكم، برغم علمه المسبق، أنّه يلقي جسده طعما للضواري، يقول في قصيدة (أنتم فكرتي):

أنا من تلكم الضحايا رمت بي ... فكرة حرّة وراء الحدود
لم أُطق كتمها وأعلم كلّ الـ ... علم أني بها أحزّ وريدي
كنت فيها ألقي بجلدي للنمـ ... ـر وحولي ممزّقات الجلود
استلذ الصراع يُبقي ... في عتيٍّ ومعجب ومريد
خُدوشا ولأنقى من نجمة في ظلام ... لطمة في مصعّرات الخدود
وللقيا الحتوف وجها لوجه ... لذّة تبتغى بجهد جهيد[4]

وقد حاول الحكام جميعا إغراءه بالمال وبالمناصب، ولكن دون جدوى مما حيرت شخصيته حكام العراق، ليقولوا بعد أن يأسوا من إسكاته (ماذا يريد الجواهري؟)، وقد أجابهم بأنه يريد، ((تحقيق مثل ينشده في الحكم، لا ضيم ولا عسف حيث يكون الحاكم على انسجام مع جماهير المدينة.))[5] يقول في قصيدته (عناد):

---

(1) مذكراتي: 1 : 252، 441.
(2) المصدر نفسه: 1 : 249، 2 : 256.
(3) الأعمال الكاملة: 2 : 264.
(4) الأعمال الكاملة: 5: 769.
ويقصد بذلك الزعيم (قاسم) الذي انقلب عليه برغم مدحه له، فسجنه وأهانه وأرغمه على الهرب إلى خارج الحدود. فالقصيدة نظمت عام 1961 في براغ في الذكرى الخامسة عشر لتأسيس اتحاد الطلاب العالمي. ينظر: تاريخ العنف الدموي في العراق: 77.
(5) الشاعر والحاكم والمدينة: 44.

عنـــاد مـــن الأيـــام هـــذا التعسّـــف تحـــاول منّـــي أن أضـــام وآنـــف
وتطلب أن يستلّ في غير طائل لسانٌ فراتيُّ المضارب مرهف[1]

ويقول في قصيدة (هاشم الوتري):

لقـــد ابتُلُـــوا بـــي صـــاعقا متلهّبـــا وقـــد ابتليـــت بهـــم جهامـــا كاذبـــا
حشـــدوا علـــى المغريـــات مســـيلة صـــغراً لُعـــابُ الأرذلـــين رغائبـــا
ظنـــا بـــأنَّ يـــدي تُمـــدُّ لتشتـــري ســـقط المتـــاع، وان أبيـــع مواهبـــا
حتـــى إذا عجمـــوا قنـــاة مـــرّةً شـــوكاء، تُـــدمي مـــن أتاهـــا حاطبـــا
واستيأسُوا منها، ومن متخشِّب عَنَتا كَصِلِّ الرَّملِ ينفُخُ غاضبـا.[2]

ستون عاما والجواهري يقارع الطغاة، فما أن يجتاز لجة حتى يقع في أخرى غيرها، يقول الجواهري، (عيد أول أيار):

أنـــا عامـــل بـــالفكر أعمِـــل مِعـــولي فـــي صـــخرة فأحيلهـــا لِفُتـــات
فـــي الكـــفِّ مطرقتـــي أَفُـــلّ بحـــدِّها أصـــلابَ أوغـــادٍ، وهـــامَ طغـــاة
ســـتون عامـــا خضـــتها كمخاضـــكم لجـــج الحيـــاة عنيفـــة الغمـــرات
اجتـــاز منهـــا لجّـــة وتلفّنـــي أخـــرى، وتفســـد لفّهـــا عزماتـــي
بيـدي أشـدّ، فـان هـوت، فبسـاعدي فـإذا التـوى، فبماضـغي ولهـاتي[3]

لقد كان الجواهري، يستغل المناسبات بشتى ألوانها، متخذا منها سبيلا إلى صبّ حمم لعناته على رؤوس حكام عصره، ففي (الخمسينات) كان في أشد حالات صراعه مع السلطة، وكان في قمته الشعرية، إذ توجه إليه الدعوات من كل فج قريب وعميق، فيلبي الدعوة؛ ليفرغ ما في قلبه من هموم جراء ما يكابده وطنه من ظلم، فيثير حفيظة الحكام، مما يضطره إلى طلب اللجوء، كما في قصيدة (خلفت غاشية الخنوع)، التي ألقاها عام (1956)في(دمشق)ومما جاء فيها قوله:

خلّفـــت غاشـــية الخنـــوع ورائـــي وأتيـــت أقـــبس جمـــرة الشـــهداء
أضـــحّية الحلـــف الهجـــين بشـــارة لـــك فـــي تكشّـــف ســـوءة الهجنـــاء
أسـطورة " الأحـلاف " سـوف يمجهـا التـــاريخ مثـــل خرافـــة الحلفـــاء
واهـــزأة الأحـــلاف بـــين مسخِّـــر ومسَـــخَّرين، وســـيّد وإمـــاء
ســـيرى عتـــاد الأجنبـــي بعيـــنه مرمـــى عقيـــدة أمّـــة عـــزلاء
ســـتعود تُصـــهر طلقـــة وقذيفـــة ترمـــي الطغـــاة سلاســـلُ السّـــجناء[4]

(1) الأعمال الكاملة: 1: 229.
(2) الأعمال الكاملة: 3 : 561.
(3) الأعمال الكاملة: 4: 728.
(4) الأعمال الكاملة: 4 : 672.

مما اضطره إلى طلب اللجوء مدة (عام ونصف)[1]، وكما حلّ ضيفا على الشعب المصري مدة (عام) ، بسبب قصيدته الشهيرة :(إلى الشعب المصري)، وفيها يقول:

إنا لنبرأ من لصوص عندنا تمضي على ما لا نُحب وتُمهر
تمضي على صدع الصفوف وفوقها راحت يد الستعمرين تؤشر[2]

(1) ينظر: الجواهري فارس حلبة الأدب: 149.
(2) الأعمال الكاملة: 4 : 584.

فهو عندما تتجمع فيه الهموم ينفجر كالصواعق المحرقة التي لا تبقي ولا تذر[1].

إيهٍ عميد الدار شكوى صاحب ... طفحت لواعجه فناجى صاحبا
أنبيك عن شر الطغام مفاجرا ... ومفاخرا، ومساعيا ومكاسبا
الشاربين دم الشباب لأنّه ... لو نال من دمهم لكان الشاربا
والحاقدين على البلاد لأنّها ... حقرتْهُم حقرَ السليب السّالبا
أنا حتفُهم ألجُ البيوت عليهمُ ... أغري الوليدَ بشتمهم والحاجبا
أنا ذا أمامَك ماثلا متجبرا ... أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا
وأمطّ من شفتيّ هُزءا أن أرى ... عُفر الجباه على الحياة تكالُبا
لستُ الذي يعطي الزمان قياده ... ويروح عن نهج تنهّج ناكبا
آليت أقتحم الطغاة مصرّحا ... إذ لم أعوّد أن أكون الرائبا[2]

بمثل تلك القصائد زلزل الجواهري الأرض من تحت أقدام الحاكمين، ولعل الأستاذ (الدجيلي) -الذي كان ملازما له جلّ حياته- خير من صور الجواهري في صراعه مع الحاكم في أبياته الآتية:

وظللت أبحث عن عنيد ... الرأي في الأدب العراقي
وصبحت غيرك كثرة ... فسبرتُ ألوانَ النّفاق
أأبا فرات أنت صا ... عقة على هذا الخلاق
قارعت عسفَ الحاكمين ... بعاطف صعب التلاق[3]

بذلك يكون الجواهري قد شرّع لفن جديد لم يألفه الأدب العربي من قبل، ألا وهو (منهج العنف الشعري) ، فما بين البارودي وشوقي، وما بين الرصافي والزهاوي، كان الشعر العربي في مطلع القرن يدعو إمّا إلى إصلاح السلطة العثمانية، وإما استقلال العرب عنها، وإما إلى الإصلاح الاجتماعي، كما نطالع في قصائد (بشارة الخوري)، و(خليل مطران) عن (اليتيمة) و(المشرّدة) و(الأم الجائعة) وحتى (فتاة الجبل الأسود) الفرق بين تلك القصائد وقصائد الجواهري، هو في نوعية النبرة، واختلاف الرؤى الدموية[4]. إيمانا إيمانا منه بأنّ إصلاح الوضع يكون بالشعر السياسي الثوري الذي بدأت به كل الثورات في العالم قديما وحديثا.

---

(1) ينظر: ملامح من شاعرية الجواهري: 129.
(2) الأعمال الكاملة: 3: 567.
(3) مع السائرين: عبد الكريم الدجيلي: 42. مطبعة الإرشاد: بغداد: 1960.
(4) ينظر: محمد مهدي الجواهري والعنف الشعري: د.محيي الدين صبحي: 338. في ضمن (الجواهري وسيمفونية الرحيل). وينظر: في رحلة الفكر والتجول: 25. (في ضمن الجواهري وسيمفونية الرحيل)